

الفصل الرابع

رد فعل التجربة الدينية لليهودية والمسيحية عند العلماء والمفكرين والفلاسفة

لقد انتهينا من الفصل السابق — بما لا يدع مجال لأى شك — إلى خرافة ووثنية الفكر الدينى للديانتين اليهودية والمسيحية على نحو مطلق وأسطوريتها معا . فكما رأينا من الفصل السابق ، إذا ما اعتبرنا أن " الكتاب المقدس " كله موحى من السماء ، كما يعتقد فيه أهله ، وإذا ما افترضنا أن " الكتاب المقدس " يخلو من أى تحريفات أو صياغة بشرية ، فيكون معنى هذا أن الوحي الإلهي القادم من السماء ، لم يأت للإنسان (فى الديانتين اليهودية والمسيحية معا) إلا بالخرافات فى " الدين " ، والخرافات فى " الفكر الإلهي " ، وكذلك الخرافات فى " النصوص الكتابية " . فلم يأت هذا الوحي إلا بفكر مترد وهابط عن الأنبياء ، كما لم يأت إلا بفكر وثنى وأسطورى عن الإله ، وكذلك لم يأت هذا الوحي ، إلا بنصوص لا يمكن أن تتدرج إلا تحت كل ما هو هابط وقبيح فى الأخلاق واللغة معا ^١ .

^١ فى الحقيقة ، كما سبق وأن ذكرت ، أن الديانتين اليهودية والمسيحية بشكلهما الحالى ، هما بقايا دين سماوى حقيقى ، غارق فى خضم هائل من الوثنيات الفكرية البدائية ، جمعهما كتاب بشرى/سماوى واحد هو " الكتاب المقدس " بشكله الحالى . وهو الكتاب ؛ الذى يصر أهله على إعتبره أن كله موحى من السماء ، وليس به أى تحريفات أو صياغة بشرية ما . وبديهى أن هذا يضعهم فى وضع حرج للغاية ، ووجها لوجه مع الفصل السابق ، ليروا حقيقة ما يعبدون ، وحقيقة ما يعتقدون فيه .

وبديهى ، طالما وأن الكتاب المقدس يحوى بقايا أصول سماوية ، فلا بد — إذن — أن يحوى بقايا من بعض مكارم الأخلاق ، وبعض بقايا من صفات " الله " الحقيقية . وبديهى أيضا أن مثل هذه اللقطات الحقيقية تمثل ، فى الواقع ، الوحي الإلهي الصادق القادم من السماء ، بينما باقى الوثنيات الفكرية — على النحو السابق ذكره فى الفصل الثالث — هى من صنع الإنسان البدائى وحده ، وليست وحيا سماويا ، بل ولا يمكن حتى اعتبارها صياغة معقولة لفكر بشرى ناضج عن الدين أو عن الإله أو عن كلاهما معا . وجدير بالذكر ، أنه لولا وجود بعض من تلك البقايا السماوية فى الكتاب المقدس (إلى جانب الفطرة البشرية الخاصة بإدراك وجود الله ، وفطرة التدين) ، لما بقيت الديانتين اليهودية

وقد خلفت هذه التجربة الدينية — كما سنرى — إنسان تملؤه الريبة والشك في وجود الله والدين من جانب ، كما تملأ نفسه التردد والحذر من الاقتراب من الأديان بصفة عامة من جانب آخر . وليس هذا فحسب ، بل خلفت تلك التجربة أيضا ، إنسانا فاقد الثقة في مبدأ الوحي الإلهي القادم من السماء على نحو مطلق .

وعلى الرغم من هذه التجربة المريرة التي مر بها الإنسان على يد تلك الديانتين ، كما سبق وأن رأينا في الفصل الثالث ، إلا أن الإنسان لم يستطع أن يفصل عن الإله ، كما لم يستطع أن يفصل عن التدين بدين ما ..!! أو بمعنى آخر ، إن الإنسان ما زال لم يستطع أن يكف عن الاعتقاد في الله ، كما لم يستطع التخلص من حاجته الفطرية للتدين بدين ما .

وهكذا خلفت التجربة الدينية الناتجة من فكر هاتين الديانتين ، إنسانا يشعر بالوحشة في ذلك الكون ، ولم يعد لديه إلا الاعتماد على نفسه في البحث عن الله .. وعن الدين ..!! وبديهي وهذا هو حال تجربته الدينية السماوية كما يعتقد ، إذن لم يعد لديه إلا الذهاب إلى الفلسفات الوضعية التي جاء بها الفكر البشري ليتدين بها . أو بمعنى آخر ، لقد أصبح من البديهي أنه لم يعد للإنسان إلا البحث عن دين آخر في قالب فلسفات فكرية من وضع البشر .

وكما سنرى حالا ؛ فإن جميع هذه الفلسفات الوضعية — منذ بدء الحضارة البشرية وحتى الفلسفات المعاصرة — لم تؤد بالإنسان إلى فكر يذكر عن الإنسان أو عن الله ، باستثناء ما هو مدرك بالفطرة فقط . ونقصد بالفطرة .. هو باستثناء ما هو موجود في الفطرة البشرية من إدراك أن الله — سبحانه وتعالى — موجود وينبغي أن يتميز بكمالات مطلقة ومتعالية ، كما وإنه — أى الله — يجب أن يكون مصدر هذا الوجود ، ومصدر حياة الإنسان وخلوده . أما التفاصيل الأخرى الخاصة بجميع المقاصد الإلهية في هذا الشأن ، والخاصة بالإجابة على سؤال .. لماذا الوجود ؟ ولماذا الإنسان ؟ وما هي الغايات من الخلق ؟ فلا يمكن أن يقود إليها الفكر الفلسفي بنحو أو بآخر على الإطلاق . وسوف نرى أن الفلسفات المختلفة منذ أن نشأت ، لم تقد الإنسان إلا إلى بعض البراهين الدالة ، والقاصرة في نفس الوقت ، على وجود الله فقط ، على النحو الذي سبق ذكره في الفصل الثاني .

والمسيحية على مر التاريخ ، وحتى الآن . وكما سبق وأن ذكرت ، إن استخراج بقايا النصوص المقدسة من " الكتاب المقدس " ، أو تنقية فكر " الكتاب المقدس " من الوثنيات الفكرية الواردة به ، ليست من ضمن أهداف هذا الكتاب .

١. رد الفعل الدينى لدى العلماء والمفكرين والفلاسفة

يقول الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه ٢ :

" إن الإيمان المسيحي معناه الانتحار المتواصل للعقل البشرى ٣ "

وعلى الرغم من أن " نيتشه " كان ينحدر من أسرة إكليريكية ، حيث كان والده قسيسا وكان معظم أجداده من أمه وأبيه من رجال الدين (أى أنه كان ذى خلفية دينية مسيحية عريضة وواضحة) ، إلا أننا نجده يقول :

" إن الإله قد مات ، وسيظل ميتا ونحن الذين قتلناه "

وموت الإله من وجهة نظر " فلسفة نيتشه " ، كما يصفها فلاسفة آخرون ، معناه تحرر الإنسان من الدين ، ولكنهم يضيفوا قائلين .. بأن هذه الفلسفة ، قد أدت بالإنسان إلى عصر العدمية (Nihilism) ٤ ، وبذلك لم يعد للإنسان إلا ذاته . وتأكيد الإنسان لنفسه أو إثباته لذاته يقوم

٢ فريدريك نيتشه : Friedrich Nietzsche (١٨٤٤ - ١٩٠٠) ؛ فيلسوف ألماني ، يعتبر من وجهة نظر كثيرين من الفلاسفة أمثال " مارتن هيدجر " (١٨٨٩ - ١٩٧٦) و " كارل ياسبرز " (١٨٨٣ - ١٩٦٩) ، أحد المؤسسين الأوائل ، أو على الأقل ، أحد المفكرين الأوائل الذين مهدوا الطريق إلى " مذهب الوجودية الحديثة " . وقد بشر " نيتشه " بـ " الإنسان الأعلى " أو " السوبرمان " ، بعد أن مات الإله على يديه . وكان نيتشه عدوا صريحا للديمقراطية وللعقلانية التي تقوم عليها . وكان يتطلع إلى ميلاد أخلاقيات جديدة تنصر الأقوياء على الضعفاء ، وتزيد من اللامساواة الاجتماعية ، بل وتخلق نوعا معينا من القسوة .

٣ " الوجودية " ، جون ماكورى ؛ ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام ، مراجعة د. فؤاد ذكريا . دار الثقافة للنشر والتوزيع . صفحة : ٧٤ / ٧٥ .

٤ العدمية (Nihilism) ؛ هي فلسفة ترفض القيم والمعتقدات التقليدية وتقول بأنها باطلة ولا أساس لها من الصحة ، كما تقول بأن الوجود لا معنى له ولا غناء فيه . والعدمية بهذا المعنى قديمة ، وقد قال بها بعض الهراطقة في القرون الوسطى ، ومن ثم اتخذت معاني متفاوتة عبر العصور . كما قال بعض العدميين بأن المبادئ الأخلاقية لا أساس موضوعيا لها ، وقال البعض الآخر بأن الأحوال في المجتمع هي من السوء بدرجة تجعل من الهدم مرغوبا فيه لذاته وبمعزل عن أى برنامج إنشائي أو بناء . وقد انتشر استخدام هذا المصطلح في الأوساط الأدبية والسياسية الروسية خلال القرن التاسع عشر بعد أن روج له " تورغنيف " فى تصويره لشخصية " بازاروف : Bazarov " فى رواية " الآباء والأبناء : Fathers and Sons " (عام ١٨٦٢) . وقد دعت بعض الفئات العدمية الروسية إلى الإصلاح الثورى فى روسيا ، واستعانت، فى ذلك بالإرهاب والإغتيال .

على خلفية أساسية ، هي أننا موجودون في عالم عبثي لا معقول (Absurd) ° ليس فيه " إله " . وهكذا ، لم توصل الديانتان اليهودية والمسيحية طريق الدين أمام المفكرين والفلاسفة فحسب ، بل جعلتهم يكفرون بكل ما هو ديني على نحو عام ومطلق أيضا .

وبديهى أن العبثية في الخلق لا تتفق وفكر الكمال الإلهي ، الذى انتهى إليه فكر فلاسفة آخرين ، ولهذا نرى القرآن المجيد يرد على هذه القرية وينفى هذا الفكر ، أى فكر العبثية ، بقوله تعالى :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَسَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) ﴾

(القرآن المجيد : المؤمنون {٢٣} : ١١٥ - ١١٦)

كما وإن خلق هذا الوجود ليس لهوا إلهيا ، لأن هذا أيضا يتعارض وفكر الكمال الإلهي ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخِذْنَا مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) ﴾

(القرآن المجيد : الأنبياء {٢١} : ١٦ - ١٨)

فلامعقولية هذا الوجود لا تتفق وفكر الكمال الإلهي ، حيث يجب أن يكون الوجود موجه نحو غايات عليا وحكمة بالغة ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ حِكْمَةٌ بِاللَّغَةِ فَمَا تُغْنِ التُّنُزُ (٥) ﴾

(القرآن المجيد : القمر {٥٤} : ٥)

بمعنى ؛ فاي نفع تفيد التنز لمن أعرض عن رؤية هذه الحكمة .

° العبثية (Absurdism) ؛ هى الفلسفة التى تقول بأن الإنسان موجود فى عالم لاعقلاني وخالى من المعانى . أنظر كذلك الفلسفة الوجودية بند ٣ . ٥ . ٢ . من هذا الفصل .

وهكذا ؛ قضية الوجود قد حسمت ، بأنها ليست لهوا إلهيا ، كما وإن الخلق ليس عبثا إلهيا . كما وإن الوجود ليس قضية عديمة الجدوى ولا طائل من ورائها ، بل هي قضية محددة الغايات واضحة المعالم ، يقوم الله - سبحانه وتعالى - بتعريفها وتحديد معالمها بشكل قاطع في قرآنه المجيد ، وقد سبق وأن عرضنا جانب منها فقط ، ولكن للقصة بقية سنتناولها بالتفصيل في كتابات أخرى إن شاء الله تعالى .

كان نيتشه يرى أن " العقلية الدينية " تتناقض تماما مع " العقلية العلمية " ، فالروح الدينية في رأيه تفكر إلى كل فهم للقوانين الطبيعية . كما كان يرى أن نمط الحياة اليونانية القديمة أرفع وأرقى مستوى من نمط الحياة المسيحية ؛ ذلك أن العقائد اليونانية (أو أساطيرها الدينية) لم تكن تقف في وجه القوى الطبيعية والعقلية للإنسان ، بينما العقائد المسيحية واليهودية عنده عقبة تحول دون نمو هذه القوى . وهو يحمل بوجه خاص على تصور الألوهية في المسيحية واليهودية : فهذا التصور مرتبط برغبة الإنسان في معاقبة نفسه ، ومرتببط بشعوره بالذنب (راجع قصة الفداء والصلب) ، وهذه الرغبة والشعور هي التي تتجسم في فكرة الله ذاتها ، فتصوره على نحو مضاد للإنسان تماما ، وتتسبب إليه من الأمور ما يقف في وجه الطبيعة البشرية ويعوق سيرها التلقائي ^٦ .

ولم يرى نيتشه في المسيح إلا إنسانا - وليس إلهيا - أساء فهم دوافعه النفسية ، وهو ما أدى به إلى الشعور بالحاجة إلى الخلاص . ولو أحسن - المسيح - فهم دوافعه ، وتخلص من أخطائه الذهنية والنفسية ، لما كان مسيحا على الإطلاق ^٧ . وكان نيتشه ينظر إلى المسيحية على أنها لا تتضمن التضحية بالروح البشرية فحسب ، بل وتشويه هذه الروح واستئصالا لحريتها كذلك ، ولذا فإن علينا أن نجاوز المسيحية ونضع مكانها نظرية " الإنسان الأعلى : The Superman " .

والمتتبع للفصل السابق ، كما سبق وأن أشرت ، لن يجد صعوبة في التعرف على ما في الديانتين اليهودية والمسيحية ، بشكلهما الحالي من وثنيات واضحة ، وهو ما دفع بـ " نيتشه "

^٦ " نوابغ الفكر الغربي : نيتشه " د. فؤاد زكريا ؛ دار المعارف . ص : ١٣٥ وما بعدها .

^٧ بديهى ينسب نيتشه الديانة المسيحية بشكلها الراهن إلى المسيح نفسه . ولكن الواقع غير ذلك ؛ فكما رأينا - من الباب السابق - أن مسيحية اليوم هي ديانة وضعية إلى حد بعيد ، ساهم في وضعها كل من بولس الرسول ورجال دين من بعده (في صور المجامع الكنسية) ، متأثرين جميعهم بعقائد وثنية كانت سائدة في تلك الفترات الزمنية المناظرة .

إلى التوجه في فلسفته الإلحادية إلى هذا الفكر الوجودى . حيث لا يمكن الاحتفاظ بمثل هذه الوثنيات الصارخة ، والبيادية للعيان ، إلا بالتضحية بالعقل من جانب ، والتضحية بالفطرة النقية – والتي ركبها الله سبحانه وتعالى في الإنسان – من جانب آخر . ومن البيهوى أيضا أن تلك الديانتين هما اللتان قادتا الإنسان إلى الفلسفات المادية الأخرى المماثلة . فهما ، في الواقع ، يمثلان الدوافع الحقيقية وراء ظهور تلك الفلسفات . ويقف إنسان القرن العشرين ليؤكد على هذه التجربة الفاشلة له مع الديانة المسيحية ، حيث يقول الدكتور وولتر أوسكار لندبرج ^٨ ، كرد فعل طبيعى لهذه الديانة ، في مقال له :

" أن جميع المنظمات الدينية المسيحية تبذل محاولات لجعل الناس يعتقدون منذ طفولتهم في إله على صورة إنسان بدلا من الاعتقاد بأن الإنسان قد خلق خليفة لله على الأرض ^٩ . وعندما تموا العقول بعد ذلك وتدريب على استخدام الطريقة العلمية فإن تلك الصورة التي تعلموها منذ الصغر لا يمكن أن تتسجم مع أسلوبهم في التفكير أو مع أى منطق مقبول . وأخيرا عندما تغشل جميع المحاولات في التوفيق بين تلك الأفكار الدينية القديمة وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلمى ، نجد هؤلاء المفكرين يتخلصون من الصراع بنبذ فكرة الله كلية . وعندما يصلون إلى هذه المرحلة ويظنون أنهم قد تخلصوا من أوام الدين ، وما ترتب عليها من نتائج نفسية ، لا يحبون العودة إلى التفكير في هذه الموضوعات ، بل يقاومون قبول أية فكرة جديدة تتصل بهذا الموضوع ، وتدور حول وجود الله . "

وبيهوى أن نبذ فكرة الله ، ليس معناها رفض الديانة المسيحية فحسب ، بل معناها أيضا رفض أى فكر دينى – على نحو مطلق – بدون ترو حتى وإن كان الدين صحيحا .

^٨ " الله يتجلى في عصر العلم " ، تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين . ترجمة د . الدمرداش عبد المجيد سرحان ، ص ٥٠ . (سبق التعرض لهذا النص في بند ١ . ٣ . ١٢ من الفصل الثاين ولكن من منظور إقرار المجامع الكنسية على وجود الصور والتماثيل داخل الكنائس ، وتكراره هنا ضرورة لتكاملية فكر رد الفعل الدينى) .

^٩ أنظر الملحق الرابع من هذا الكتاب ، لمزيد من التفاصيل عن قصة خلق الإنسان ، والفكر الدارونى فيها .

ويتكرر فكر الدكتور وولتر أوسكار لندبرج ، مرة أخرى وبشكل مباشر ، عند مفكر آخر هو عالم الفيزياء الكمية ؛ بول ديراك ^{١٠} ، الذي يسجل لنا إنطباعة ليس فقط عن الديانة المسيحية ، بل يسجل لنا إنطباعة عن الأديان بوجه عام ، كنتيجة حتمية ورد فعل طبيعي لتجربته الدينية الفاشلة مع الديانة المسيحية ، فنجدته يقول ^{١١} :

[إننى لا أتفق مبدئياً مع الخرافات الدينية ، وذلك لأن خرافات الأديان المختلفة تتناقض سويًا .. إن علينا الاعتراف بأن الأديان مليئة بالمزاعم والخرافات الخاطئة ، والتي لا توجد لها مبررات في عالم الواقع . فإذا نظرنا إلى المصطلح " إله " فإنه بالقطع يعتبر من : " نتاج الخيال الإنساني " ، لأنه يعكس تفسير الإنسان البدائي لقوى الطبيعة ، ولم تعد هذه التصورات الآن ضرورية بعد فهمنا لطبيعة هذه القوى .

إن إفتراض " إله قادر على كل شيء " لن يساعدنا في أى شيء ، ولكن من جانب آخر ، فإن هذا الإفتراض يؤدي إلى إثارة قضايا عديمة المغزى مثل السؤال .. لماذا يسمح الإله بهذا البؤس والظلم في هذا العالم ؟ وبإضطهاد الأغنياء للفقراء ...!! وبكل المأسى الأخرى ...!! على الرغم من قدرته على القضاء على كل هذا .

وإذا كان الدين مازال يعلم أو يدرس في عصرنا الحالي ، فإن ذلك لا يرجع إلى أن الصورة التي ورد بها ما زالت تقنعنا ، ولكن السبب في ذلك يكمن في إرضاء الشعوب أو الناس البسطاء ^{١٢} . إن حكم الناس الهادئين يعتبر أسهل من حكم الناس غير الراضين . إن ذلك

^{١٠} بول أدريان موريس ديراك : Paul Adrien Maurice Dirac ، عالم إنجليزي (١٩٠٢ - ١٩٨٤) . نال جائزة نوبل (بالمشاركة) في الفيزياء عام ١٩٣٣ ، عن أعماله في ميكانيكا الكم (Quantum Mechanics) ولف الإلكترون (Electron Spin) ، وعلى إكتشافه للمادة المضادة (Anti-Matter) . وقد شغل ديراك منصب أستاذ الرياضيات في جامعة كامبردج حتى عام ١٩٧٤ ، وهو نفس المنصب الذي شغله إسحق نيوتن من قبل ، ويشغله حالياً عالم الفيزياء " ستيفن هوكنج : Stephen Hawking " ، المشهور ببحوثه في الثقوب السوداء (Black Holes) .

^{١١} " الجزء والكل - محاورات في مضمير الفيزياء الذرية " تأليف فيرنر هيزنبرج . ترجمة محمد أسعد عبد الرؤف . الهيئة المصرية العامة للكتاب . ص ١٤٢ . ومؤلف الكتاب ، هو فيرنر هيزنبرج (١٩٠١ - ١٩٧٦) ، الحائز على جائزة نوبل في الفيزياء لعام ١٩٣٢ ، عن أعماله في ميكانيكا الكم ، وإكتشافه لـ " مبدأ الشك أو اللاحتمية : The Uncertainty Principle " . وهو مؤسس معهد ماكس بلانك للفيزياء بجوتنجن ، بألمانيا .

^{١٢} أغفل " ديراك " - هنا - الفطرة البشرية ، أو بمعنى أدق لم ينتبه إلى وجودها ، وهي الفطرة التي تدفع البشرية بكاملها نحو الاعتقاد في وجود " إله " ، واعتناقها لدين ما .

يسهل عملية إستغلال الناس واستهلاكهم . إن الدين نوع من الأفيون الذى يعطى للشعوب لغوايتها بالأحلام السعيدة ، وتعزيتها فى الظلم الواقع عليها . ومن هنا تنشأ ببساطة الرابطة بين القوتين السياسيتين الكبيرتين .. الدولة والكنيسة ، فكلاهما يحتاج إلى الخيال القائل بأن هناك إله محسنا — إن لم يكن فوق الأرض ففى السماء — الذى يثنى على الذين لا يتمردون ضد الظلم ، والذين يؤدون إلتزاماتهم بصبر وهدوء . وبالطبع فإن قول الصدق ، إن هذا الإله هو فقط من نتاج الخيال الإنسانى .

إننى لا أستطيع أن أعتقد إلا فيما هو حق . أما بالنسبة لكيفية تصرفى فإننى أستتجها بالفعل وفقا للموقف المعين . إننى أعيش مع جماعة بشرية أقر لأفرادها نفس الحقوق فى الحياة التى أقرها لنفسى ، وإذن فإنه يتحتم علي أن أعني بالتوازن العادل بين المصالح المختلفة ، وكل ما عدا ذلك فهو غير ضروري أو لازم [

(انتهى)

وهكذا لم ير " ديراك " سوى إننا من صنعنا الدين ، كنتاج طبيعى من " الفكر الدينى " الخرافى الذى أنتت به الديانتين اليهودية والمسيحية .. على النحو الذى بيناه فى الفصل السابق . وربما يلخص بول ديراك بكلماته هذه ؛ فكر الفلسفة الوضعية وفكر الفلسفة الماركسية فى أن واحد ، كنتاج عادل وطبيعى من ميراثه الدينى الفاشل مع فكر الديانتين اليهودية والمسيحية .

إن التجربة الدينية لأصحاب المذاهب الوضعية على نحو عام ، مع الديانة المسيحية الموروثة ، قد إنعكس آثارها ، على هذه الفئة ، فى صورة إحباط شديد لديهم ، لم يؤد بهم فقط إلى رفضهم لديانتهم الموروثة فحسب ، بل أدى هذا أيضا ، إلى إتخاذهم موقفا عدائيا وكراهية ظاهرة لكل الإديان الأخرى بغض النظر عن إمكانية أن يكون أحدها هو الدين الصحيح أو الدين الحق . ولقد خلص أصحاب المذاهب الوضعية ، مستندين فى ذلك إلى تجربتهم الدينية الفاشلة إلى أن :

" جميع الأديان تحوى قدرا من الخرافة هذا إن لم تكن كلها خرافة "

وهكذا قبل أصحاب المذاهب الوضعية ، والمتمثلة فى فكر عالم فيزياء ميكانيكا الكم ، بول ديراك ، هذه العبارة " كمبدأ أو قانون عام " يصلح أو ينطبق على كل الأديان . وبديهى إن إطلاق الأحكام العامة ، لا يتم بمثل هذه البساطة . فإصدار حكم عام مثل هذا ؛ يستلزم دراسة مستفيضة ومتأنية لجميع الحالات الممكنة لكل الأديان ، والتى يمكن أن تقع تحت طائلة هذا

الحكم أو القانون العام ، وذلك حتى يمكن أن يأخذ هذا القانون صفة العمومية ، التى يقولون بها ؛ وحتى لا يكون هذا المنطوق ، هو قانونا أو حكما جزئيا يصلح لمجموعة من الأديان ، ولا يصلح لأديان أخرى . وبديهي إن مثل هذه الدراسة لكل الأديان ، لم يقم بها أحد من هذه الفئات الراضية للدين وللإله ، بل اعتمدوا فقط على تجربتهم الفاشلة مع الديانتين اليهودية والمسيحية ، ثم قاموا بتعميم نتائجها على الدين الصحيح مهما كانت صحة وصدق مضامينه .

وكلمة " دين " عند تلك الفئات ، قد استخدمت بذات المدلول لها فى كل الأديان . فكل دين يحتوى لديهم ، بدرجة ما ، على قدر من الخرافات المتناقضة ، بغض النظر عن الاختلافات التى تنشأ فى المضامين الداخلية بين الأديان الباطنة والدين الصحيح . ولذلك فجميع الأديان من وجهة نظر هذه الفئة ، لها نفس النتيجة التى تم الإنتهاء إليها من خلال بحثهم فى ميراثهم الدينى . وهم بهذا المفهوم كمن إستخدم كلمة " بناء " بنفس المدلول بغض النظر عن طبيعة هذا البناء .. من كونه " بناء متهدم وقبيح " أو كونه " بناء شامخ ومثير " .. أو كونه " بين هذا وذاك " ، فجميع المباني من وجهة نظر هذه الفئة هو " بناء متهدم وقبيح " وحسب . تماما مثل جميع الأديان تحوى قدرا من الخرافة وحسب .

وبديهي أن " الرأى المسبق " عن المضامين المختلفة للقضية الدينية ، بدون دراسة ما تشمل الديانات المختلفة ، هو الفكر السائد عند هذه الفئة ، التى يمثلها بول ديراك . وبديهي إن مثل هذا الأسلوب مرفوض تماما فى الفكر الفيزيائى . فالنتيجة العامة أو القانون العام فى الفيزياء ، لا يصاغ بشكله النهائى من دراسة حالة خاصة أو ظاهرة واحدة قد يصلح القانون لوصفها بدقة عالية ، ولكنه يفشل فشلا ذريعا عند تناولة ظواهر أخرى مماثلة فى الوصف .

فالقاعدة العلمية تقول : بأن تطبيقا واحدا (أو مثلا واحدا) يتناقض مع النظرية الفيزيائية أو القانون العام التجريبي ، ليس كفيلا بأن يهدم هذه النظرية أو القانون التجريبي فحسب ، بل كفيلا بأن يقوض أركانها أيضا ، حتى وإن كان هناك مئات التطبيقات الدالة على صدق هذه النظرية أو القانون التجريبي . والأمثلة الدالة على هذا كثيرة فى مجال الفيزياء العامة ، نذكر منها على سبيل المثال ، أن الحكم على النظرية الذرية لـ " نيلز بوهر " ١٣ ، كان قد أعلن بعد ظهور النظرية بعشرة أعوام ، وجاء كما يلي على وجه التقريب :

١٣ عالم دانيمركى (١٨٨٥ - ١٩٦٢) نال جائزة نوبل فى الفيزياء عام ١٩٢٢ .

[أن النظرية الذرية تصلح لوصف أطيف الهيدروجين والهيلوم المتأين بدرجة عالية من الدقة ، ولا بأس بها في حالات الذرات الأحادية التكافؤ . ولكنها لا تصلح مطلقا في حالات الذرات عالية التكافؤ] .

وعلى هذا الأساس قضى على هذه النظرية و أصبحت في ذمة تاريخ العلوم . وعلى ذلك فإن القانون العام في الفيزياء ، لا يصاغ بصورته النهائية حتى يثبت يقينا بأنه ينطبق على كل الظواهر التي يتكلم عنها بدقة كافية . وهنا فقط يحق لنا بوصفه بالعمومية ، أو بأنه قانون فيزيائي عام . كما قد يعاد النظر في صحته مرة أخرى إذا تم اكتشاف ظاهرة جديدة لا يصلح القانون بتفسيرها ، أو لا يصفها بالدقة الكافية .

ومن هنا نرى أن فكر الفئة التي يمثلها عالم الفيزياء بول ديراك ، لا ينتمي إلى التفكير العلمي من قريب أو بعيد (على الرغم من كونه عالما في الفيزياء !!) . حيث يتم إطلاق الأحكام العامة بدون سند إلا من خلال تجربة خاصة ، أو تجربة ذاتية — ومع ديانات وثنية — لا تصلح لمثل هذا التعميم . ومن المفارقات الغريبة أننا نجد علميين كثيرين ينتمون إلى مثل هذا الفكر ، أي إلى فكر بول ديراك ، غير العلمي . غير إننا يجب ألا نغفل رأى العلميين المدركين لهذه الحقيقة تماما ، حيث يرد عالم الفيزياء فيرنر هيوزنبرج^{١٤} على بول ديراك بقوله :

[إن الدين لا يهدم بمثل هذه البساطة التي ذكرتها الآن ، فربما يملك دينا آخر ، مثل الدين الصيني القديم^{١٥} بالنسبة لك قوة إقناع أكبر من الدين الذي يظهر فيه تصور الإله المتجسد ، أو الإله الإنسان] .

١٤ " الجزء والكل — محاورات في مضممار الفيزياء الذرية " تأليف فيرنر هيوزنبرج . ترجمة محمد أسعد عبد الرؤف . صفحة ١١١ .

١٥ ديانات الصين على حسب الترتيب الزمني لها هي : الطاوية (Taoism) ، والكونفوشية ، والبوذية . وليس مستطاعا أن نقول أن بعض الصينيين طاويون ، والبعض الآخر كونفوشيون ، وغيرهم بوذيون . فيمكن أن يكون الصيني طاويا وكونفوشيا وبوذا في نفس الوقت .

والحكمة الصينية التقليدية ، في الطاوية ، تقول بأن في جوهر كل الأشياء مبدأ إلهي ، أو شريعة يسمونها " الطريق أو الطاو : Tao " (تنطق كذلك التاو) ، وهي — أي الشريعة — أقرب ما تكون إلى ما يسميه الرواقيون " الطبيعة " التي يجب أن تتسجم معها كل الأشياء في السماء وعلى الأرض . ومعرفة " الطريق أو الطاو : Tao " هو أسمى أنواع المعرفة ، وهو يمثل إرادة السماء ، وهو الإسم الذي يطلق على " القوة العليا الأسمى " (أي الله) التي تضبط شئون البشر ، وهي قادرة على كل شيء ، عالمة بكل شيء . وقد إنحدرت الطاوية فيما بعد ، وأصبحت فكرا يؤمن بحلول الآلهة ، لا ببالي ولا يميز بين الأشياء ، ويقف موقفا سلبيا تجاه المثل الأخلاقية . ثم إنحدرت ، بعد ذلك ،

ثم نأتى إلى حجة أخرى قد ساقها ديراك ، فى تبريره لرفض الدين والإله معا ، ويتفق معه فيها كثير من العلماء — أو بمعنى أدق كثير من مدعي العلم بكل أسف — وهى الحجة التى تقول (كما يقول عالم الفيزياء بول ديراك) :

[أن مجرد فهمنا للقوانين الطبيعية ، والعلاقات التى تحكمها كاف تماما لدحض فكرة " الله " ، حيث لم نعد فى حاجة إلى هذه الفكرة .. بعد أن إتجلت الأمور لدينا ..] !!..

ففى الحقيقة ، إن هذه حجة — هى الأخرى — متهافته للغاية ، وتعكس بدرجة واضحة العجز البشرى عند تناوله قضية أو قضايا لا يوليهما العناية الكافية أو الوقت الكافى لدراستهما وفهمهما ، حتى وإن كان من أقطاب الفكر فى مجالات أخرى . ففى الواقع ، إن مثل هذا الفكر أو هذا المفهوم لا يعكس إلا جهلا واضحا ، وقصورا ملحوظا فى إدراك حقيقة الإنسان لنفسه ، وفى حقيقة إدراكه لهذا الوجود . فيجب أن يكون مفهوما جيدا :

.. إن القضية فى العلوم الطبيعية تدور فقط حول استنباط أو معرفة ما تقوم به الطبيعة بالفعل ، من خلال القوانين السرمدية التى قد سنها الله — سبحانه وتعالى — لتجرى عليها الطبيعة ، كما يجرى عليها أيضا الإنسان والأكران والمخلوقات الأخرى المختلفة . ولا أحد يدعى أو يجرؤ أن يدعى من الفيزيائيين أو من غيرهم ، بالقول بأكثر من هذا . ودعنا نفصل هذا المعنى بالمثال البسيط التالى :

لقد أدركننا واكتشفنا قانون الجذب العام بين الأجسام المختلفة .. بل وذهبنا إلى أبعد من هذا ، وحددنا مقدار القوة المتبادلة والناجمة عن تفاعل أى جسمين متباعدين ، والكيفية التى تتغير بها

إنحدارا آخر على مر الزمن ، فأمست عقيدة مسرفة فى تعدد الآلهة ، وممارسة فنون السحر للوقاية من الشياطين . وقد تشابكت فى تعدد الآلهة مع الهندوسية ، وشاركتها نفس المصير . وقد ظل الإعتقاد شائعا فى الصين لعدة قرون بأن " لاتسو " أب الطاوية ، هو الذى علم بوذا البوذية ، وأن البوذية هى ببساطة : صورة أجنبية من الطاوية .

وكما نرى ، فإن هذا هو غاية معرفة " فيرنر هيزنبرج " عن الأنيان ، فهو لم ير على الساحة البشرية ، غير الدين الصينى القديم — هذا إلى جانب المسيحية — والذى يمكن ، أو يحتمل أن يكون أحسن حالا منها (أى من المسيحية) من حيث قوة الإقناع ، ولكنه كان لا يعلم شيئا عن " الإسلام العلمى " .

هذه القوة ؛ فوجدناها (أى وجدنا هذه القوة) تتناسب عكسيا مع مربع المسافة بينهما ، وطرديا مع حاصل ضرب كتلتيهما ^{١٦} . والسؤال المطروح الآن هو :

من الذى قرر أن تكون العلاقة الجذبية بين الأجسام المتباعدة على هذا النحو الذى نراها به الآن ، وليست على نحو آخر ؟ بديهى ليس نحن .. بديهى هناك من قرر أن تكون العلاقة الجذبية بين الأجسام على هذا النحو الموجودة به فعلا . والسؤال التالى هو :

هل اكتشفنا لهذه العلاقة هو الذى حدد شكل القانون أو هو الذى حدد النحو الذى يتغير به هذا القانون الآن ؟! بديهى لا أيضا ، فمن البديهى أن معرفتنا لهذا القانون ليس له علاقة من قريب أو من بعيد بشكل القانون ذاته .

ففى الواقع ، إن الإنسان ليس له دور فيما يحدث فى الطبيعة على الإطلاق ، أو فيما يرى . كما وأنه فى أحسن أحواله ، يستطيع — فى أحيانا قليلة جدا — أن يفهم أو أن يعى ما يدور حوله ويقدر محدود وغير كامل . إن الإنسان يقف دائما موقف المتفرج على ما يحدث له ، تماما كما يقف موقف المتفرج على ما يحدث حوله فى الطبيعة . ففى الحقيقة ؛ إن صورتنا لم تتغير كثيرا عن الإنسان البدائى أمام الظواهر الطبيعية وأمام الكون .

فعلى سبيل المثال ؛ فقد كان الإنسان البدائى ينسب " ظاهرة حدوث الرعد " مثلا والصوت الصادر عنه ، وبدون الدخول فى التفصيلات العلمية ، ببساطة شديدة وبذكائه الفطرى ، إلى إرادة عليا تعلقو على إرادته ، وهذه الإرادة هى المسئولة عن حدوث هذه الظاهرة وبهذا الشكل .

وفى الحقيقة ؛ إن هذا الموقف لم يتغير — الآن — كثيرا عن موقف الإنسان البدائى ، وبعد غاية علمنا من قوانين طبيعيات الجو وظواهره ، وقوانين القوى الكهرومغناطيسية ، وقوانين الديناميكا الحرارية ، وقوانين الصوتيات ، وقوانين انتشار الموجات ، وهى جملة فروع العلم المتشابهة التى تدخل فى تكوين هذه الظاهرة . فماذا بعد أن علمنا بكل هذا ؟! لا شيء !! فبعد كل هذا العلم الفيزيائى الخاص بوصف وتحليل الظاهرة الطبيعية .. تأكدنا أنها تحدث بإرادة تعلقو فوق إرادة الإنسان .. وهذه الإرادة هي التى حددت القوانين الفيزيائية المختلفة التى

^{١٦} يسمى هذا القانون بـ " قانون الجذب العام " ، كما يسمى أحيانا بـ " قانون التربيع العكسى " . وعلى الرغم من أن العلاقة التى يمثلها هذا القانون هى علاقة من أبسط العلاقات الطبيعية والموجودة فى الفيزياء العامة ، إلا إنها تعتبر من أعتى ألفاظ الكون التى لم يستطع الإنسان أن يفك أو أن يحل طلاسمها حتى الآن .

تتحكم في سير وحدث الظاهرة ..!! أي نظرة الإنسان البدائي للظاهرة الطبيعية .. هي نفس نظرتنا لها - الآن - حتى بعد غاية علمنا للقوانين التي تتحكم في سير الظاهرة .

فعملية تكون السحب الركامية التي تسبق حدوث الرعد ، مازالت تجرى على نفس النحو أو نفس النمط السابق التي كانت تجرى عليه أيام الإنسان البدائي ، ومازالت الظاهرة تحدث بنفس الكيفية التي كانت تحدث عليها أيام الإنسان البدائي .. إن غاية علمنا بالظاهرة ، لم يغير من الظاهرة في شيء .. كما وأن الظاهرة مازالت تحدث بناء على قوانين أو سنن سرمدية محددة ، قد قدرتها إرادة عليا لتجرى عليها . إننا بعلمنا هذا لم نتجاوز معنى المتفجع ، الذي أصبح يعي قليلا ما يرى ، وبطريقة أكثر دقة عن ذي قبل ..!! لكن ما زالت الإرادة العليا تعمل بنفس الكيفية التي كانت تعمل بها من قبل ، كما سوف تعمل بها من بعد . فهذه الإرادة هي التي قررت حدوث كل هذا من قبل وحدثه من بعد ، وما زالت نفس السنن التي كانت تجرى على الظاهرة من قبل ، هي التي تجرى عليها الآن ، وسوف تجرى عليها من بعد .

إن غاية البحث العلمي الآن ، هو البحث عن مجالات أو أساليب جديدة ومبتكرة ، لاستغلال الظواهر الطبيعية ، من حيث كونها موجودة بالفعل ، مثل وجودنا تماما سواء بسواء ، كما وإن هذه الظواهر مسخرة للإنسان - فعلا - وليس هو الذي يسخرها . فالإنسان يتعلم كيف يركب الحصان (وليس الأسد) ويسوسه ولكنه لا يقوم بصنعه . فهناك من قام بصنع الحصان له وسخره له وجعله مستأنسا ، كما سخر له الأسد أيضا ولكن في حدود أقل من الحصان ، بينما نجد بعوضه لا تكاد ترى تقلق مضجعنا من نوم عميق ولا نستطيع استئناسها .

وهنا يجب أن أشير إلى اكتشافنا للقوانين الرياضية التي تحكم الظواهر الطبيعية ، هو بمثابة العثور على كتاب التشغيل لماكينة بالغة الدقة قد صنعت خصيصا من أجلنا ، وأرسلت إلينا من قبل صانع (خالق) قادر متعال ، كما جاء في قوله تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) ﴾

(القرآن المجيد : الجاثية {٤٥} : ١٣)

أدرك الإنسان معنى ﴿ ... جَمِيعًا مِّنْهُ ... ﴾ ؟ ، وليس هذا مدعاة للإنسان للتفكير فيمن سخر لنا هذا .. كما جاء في قوله تعالى ﴿ ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . فهل فهمنا

لكتاب تشغيل ماكينة ما (The operating manual) ، يعني نفى وجود صانع لهذه الماكينة ، سبحان الله ..!!!

إن الإنسان دوره سلبي تماما في هذا الشأن . فالإنسان يقف من هذه القوانين موقف المتفرج في جميع حالاته . فالإنسان ليس هو الذى سن قوانين الظواهر على النحو الذى نراها عليه .. وليس هو الموجد لهذه الظواهر .. وليس هو الذى سخرها لنفسه .. وليس هو الذى يجربها .. وليس هو الذى يستطيع أن يجعلها تكف عن الفعل أو العمل .. وليس هو الذى قد حدد لنفسه حدود إدراكه بها .. وقل ما شئت : عن ليس هو ..!! كما أننا لا نفهم من الظواهر الطبيعية إلا بالقدر المسموح لنا به فقط ، وبدرجة معينة تكفى للتعامل مع الظاهرة ، وفى أضيق الحدود .. هذا إلى جانب أننا لا نملك تعديل القوانين الفيزيائية أو خلق قوانين جديدة لم يكن لها وجود سابق من قبل .

إن قول – عالم الفيزياء النظرية – بول ديراك :

[إن مجرد فهمنا للقوانين الطبيعية والعلاقات التى تحكمها كاف لدحض فكرة " الله " ، حيث لم نعد فى حاجة إلى هذه الفكرة .. بعد أن إنجلت الأمور لدينا]

هو ، فى الواقع ، قول لا يمكن أن يصدر إلا عن فرد مغيب العقل تماما . وهو قول مكافئ تماما لمن يقول :

[إن مجرد فهمنا للماكينة الجديدة ، من خلال كتاب التشغيل الخاص بها ، والذى أرسله الصانع لنا معها ، كاف لدحض فكرة أن يكون للماكينة صانع ، وذلك بعد أن إنجلت لدينا طريقة عمل وتشغيل الماكينة]

ما هذا العبث الفكرى ..؟! وهكذا يصل التناقض الذاتى فى الصياغة الفكرية فى فكر العلماء ، إلى درجة صارخة من الوضوح ..!! بل وتكاد تصل هذه الصياغة إلى حد البلاهة !!

فبديهى أن عبارة كهذه ليست عبارة منطقية على الإطلاق . فبديهى إن وجود صانع للماكينة هى من الأمور البديهية التى لا تحتاج إلى برهان ، لأنها نتيجة طبيعية لوجود الماكينة نفسها . كما وإن فهمنا لطريقة عمل الماكينة ، لو صح الإدراك والتعقل ، سوف يلقى لنا مزيد من الضوء على الحكمة البالغة والقدرة الفائقة لهذا الصانع ، نظرا للإتقان المذهل الذى جاءت عليه هذه

الماكنية . ولهذا نجد الله – عز وجل – ينهى الآية السابقة بقوله تعالى : ﴿... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

ولا أدري كيف لم يدرك عالم فيزيائي مثل بول ديراك عبارة خاطئة من الناحية العلمية بمثل هذه البساطة . ولكن لا نملك إلا أن نقول بأن كلامه هذا هو نتيجة حتمية ، تفرضها عليه الصورة المتردية عن الديانة الموروثة ووثنيتها الفادحة التي يراها ديراك ، والتي يعتقد بأنها الديانة الوحيدة الصحيحة والمتاحة لديه !!..

وتبقى كلمة أخيرة ، هو أن ديراك لم يدرك حقيقة بسيطة أخرى ، ألا وهي إنه هو نفسه جزء بسيط من هذه الماكنية ، وإن كتاب التشغيل يشمله هو الآخر أيضا كما يشمل الظاهرة . حيث سبق تجهيزه هو نفسه ، أى سبق تجهيز وتركيب ديراك نفسه – فى المصنع الإلهي – ليكون بالكيفية التي نراه عليها ، وعلى النحو الذي أراده الله له ، وذلك حتى يمكن أن يستوعب ظواهر مثله تماما .. من منطلق قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) ﴾

(القرآن المجيد : الإنفطار {٨٢} : ٦ - ٧)

أوعى الإنسان قوله تعالى .. ﴿... فى أى صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ !!.. فاتنا – اولا وأخيرا – من تركيب (أو خلق) الله عز وجل ..

ثم تبقى كلمة أخيرة يجب إضافتها ، حول خوف الإنسان البدائي من الظواهر الطبيعية ، وهو الخوف الذى يجعجج به الماديون ، ويقولون بأن هذا هو الدافع الحقيقى بالإنسان إلى التدين ونشأة الدين . ونقول أن هذا الخوف لم يتجاوز معناه عن : " الخوف الغريزي أو الفطرى " الذى زرعه الله فينا . وهو الخوف اللازم لحفظ النوع من الفناء والذى يعرف باسم " غريزة حب البقاء " . وبهذا لم يتجاوز الخوف من الظاهرة .. المعنى من أن يمتد أثر الظاهرة لتصيب الإنسان بالضرر أو أن تقتله .

وبديهى إن هذا الخوف سوف يتلاشى إذا ما تم العلم والإحاطة بالتأثيرات المختلفة للظاهرة ومدى تأثيرها على الإنسان ، وبهذا يستطيع الإنسان أن يتقيها . ومع ذلك فما زال الإنسان

يخاف من الظواهر التي لا يمكن التنبؤ بامتدادها المكاني والزمني وبالأثر الناجمة عنها ، مثل الزلازل والفيضانات . إن الخوف هنا هو خوف غريزي للمحافظة على الحياة ، وليس خوفاً من الظاهرة نفسها ، لأن هذا الخوف سوف يتلاشى إذا ما علم الإنسان بأبعاد الظاهرة وتأثيراتها . أما الدافع وراء التدين والإيمان بالله ، فهو دافع غريزي آخر ومستقل عن باقي الغرائز الأخرى .

أن الإنسان لا يمثل — في الواقع — إلا أحد الكمات في هذا الكون شأنه في ذلك شأن المخلوقات الأخرى ، بل وشأنه في ذلك أيضاً شأن القوانين الطبيعية نفسها ، ولكن ، الله سبحانه وتعالى ، قد قضى بأن يكون هذا المخلوق ذي طبيعة مغايرة . ونعني بذلك أن الإنسان لا يمثل نفساً ذات امتداد محدود في الزمان والمكان فحسب ، بل هو — في الواقع — يمثل وجوداً تلتقى فيه حدود عدة عوالم أو أكوان مختلفة ومتداخلة (متطابقة) مع بعضها البعض . أو بمعنى أدق ، أن " الله " — سبحانه وتعالى — قد قدر للإنسان خلقاً لا ينتمى إلى كون واحد محدد ، بل خلق الإنسان كحدود إلتقاء لعدة أكوان متداخلة ومتطابقة (تحكمها قوانين مغايرة تماماً لما نألفه في كوننا هذا الذي نحيا فيه) ، حيث يتحدد طبيعة ظهوره في أي منها (أي يتحدد ظهور الإنسان في أي من هذه الأكوان المتطابقة) على حسب فعله وحركته تحكمه في هذا قوانين سرمدية عليا ، لا نعلم عنها — الآن — شيئاً إلا شذرات متطايرة من محيط هائل من المعرفة الكلية من العلم الإلهي اللامتناهي وفي حدود المسموح بها . وليس معنى هذا إن هذه القوانين غيبية بشكل مطلق ، ولكنها قوانين نستطيع أن نمسها من بعيد ، وتحت ظروف خاصة جداً ، وكما يخبرنا بها الله — سبحانه وتعالى — في قرآنه المجيد . وسوف نعرض لها بالتفصيل في كتابات تالية إن شاء الله ١٧ .

ثم نأتى إلى حجة ثالثة قد ساقها ديراك في معرض كلمته ، والتي تستند إليها هذه الفئات المنكرة للقضية الدينية في تأكيد رفضها للدين . وهي الحجة التي تقول :

بـ " أن الدين يستخدم في استغلال الناس واستهلاكهم "

فكما يبدو من هذه الحجة إن تجربة هذه الفئة لم تخرج عن الإطار الفكري لميراثهم الديني . ويدهى إن الديانة اليهودية أو المسيحية كما جاءت على النحو السابق ، تسمح بمثل هذا الاستغلال والاستهلاك الإنساني للإنسان ، وليس هذا فحسب بل تسمح كذلك بتدمير الإنسان للإنسان وتقديمه قرباناً وضحية على مذبح الإله الوثني ، كما تسمح للإنسان بظلم الإنسان

١٧ أنظر " الدين والعلم .. وقصور الفكر البشري " لنفس مؤلف هذا الكتاب .

والغدر به وخيانته أيضا ..!! وقل ما شئت .. وحدث بلا حرج كما رأينا في الفصل السابق .
 وحتى الأحكام الأخلاقية التي جاءت في هاتين الديانتين – اليهودية والمسيحية – لا يعول عليها
 كثيرا ، في إطلاق العدالة بمعناها العام أو المطلق . فعلى سبيل المثال نجد النص – المقدس –
 التالي الذي يقول :

[١٦ لَا تَشْهَدُ عَلَى قَرِيْبِكَ شَهَادَةً زُورَ .]

(الكتاب المقدس : سفر الخروج { ٢٠ } : ١٦)

وبديهى يكون في المقابل ، إنه يمكنك أن تشهد الزور على غير قريبك . وهو ما يسمح بشيوع
 الفاحشة والفوضى واستهلاك الإنسان للإنسان . ومثل هذه الفوضى الأخلاقية مرفوضة تماما في
 الوحي الإلهي الصادق ، فالحق والعدل يجب أن يجريان على نحو متسق ومطلق ومستقل حتى
 عن النفس أو الوالدين أو ذوى القربى ، كما جاء في قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ
 وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلُونَا أَوْ
 تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللّٰهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) ﴾

(القرآن المجيد : النساء { ٤ } : ١٣٥)

هكذا بمنتهى الوضوح والصرامة والحزم ﴿ ... كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ
 أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ... ﴾ ، فالشهادة هنا مطلقة والله وليس لبشر . والقوام
 بالقسط معناه أداء الحق والعدل بمقياس لا متغير أى بمقياس مطلق منزّه عن الأهواء حتى لو
 كان هذا على الإنسان نفسه . ولا ﴿ ... تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ... ﴾ ، فالإنسان يجب ألا
 يتبع هواه فى العدل ، فالعدل هو " قضية مطلقة " أى قضية مستقلة وبعيدة تماما عن أهواء
 النفس .

فإذا جئنا إلى النواهي الإلهية – فى الديانة الحقّة – نجد قوله تعالى :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ عَلَىٰ مَن تَشْرَكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا
 تَقْسُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ لَّحْنٌ نَّرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ
 وَلَا تَقْسُلُوا أَنفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّٰهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا

تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۚ ۱۸
لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ
وَصَاحِبَكُمْ بِهِ لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾

(القرآن المجيد : الأنعام {٦} : ١٥١ - ١٥٢)

[من إملق : من فقر]

فأين الاستهلاك الأدمى - هنا - فى مثل هذه النصوص ، فكما نرى ﴿ .. وَإِذَا قُلْتُمْ
فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ .. ﴾ ، أى لا تحيز ما ، وأين الإستهلاك الأدمى مع النص الإلهى
﴿ .. وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ .. ﴾ . وأين الإستهلاك الأدمى فى نص كهذا ..

﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا مُّبِينًا (١١٢) ﴾

(القرآن المجيد : النساء {٤} : ١١٢)

[التفسير : الخطيئة هى فى العمد وغير العمد ، أما الإثم فلا يكون إلا فى العمد ، والبهتان هو الفرية
والكذب]

فبديهى أن الدين الذى يستخدم فى استعباد واستغلال الناس واستهلاكهم ليس ديناً ، إنما هو
مجموعة من القوانين الوضعية وضعها أفاقيين ولصوص وخونة لخدمة أغراضهم ، ولا يمكن
أن يكون هذا ديناً ، من صنع إله خالق ذى كمالات مطلقة . ولهذا نجد الرسول (ﷺ) يصف
بعثته بقوله :

" إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " (متفق عليه)

وننتهى من هذا ، بأن فكر الفيزياء بول ديراك لم يتجاوز معناه ، عن وصف ميراثه الدينى
الشخصى ، وهو أن الدين يستخدم فى استعباد واستغلال الناس واستهلاكهم ، وبديهى أن الوحى
الإلهى الصادق من هذا كله برىء .

١٨ هنا نرى الأحكام المذهل فى الصياغة القرآنية ؛ فجواب القضية الجزئية : " ولا تقربوا مال اليتيم
إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده " ، نراه قد أدمج تحت حكم القضية الكلية التالية لها : " وأوفوا
الكيل والميزان بالقسط " . وبهذا المعنى يكون الاستكمال الضمنى للقضية الأولى هو أن اليتيم سوف
يحصل على ماله بدقة بالغة بالميزان وبالقسط ، أى بحق مطلق ، بعد بلوغه سن الرشد والتعقل .

ولهذا تأتي الفلسفة التنويرية (The Enlightenment) فى القرن الثامن عشر ، لنراها تتمرد بشكل مباشر على الفكر المسيحى ، وتقول بأنه يجب إصلاح ما أفسدته الكنيسة . فقد كان من بين أهم برامج الإصلاح لدى فلاسفة التنوير ، برنامج الإصلاح الدينى (Religious Reform) . حيث حاولوا فصل الأخلاق عن اللاهوت والميتافيزيقا . كما اعتبروا أن التطبيقات الكنسية خاطئة ، واعتقدوا أن الديانة الطبيعية (Natural Religion) هى الديانة الصحيحة ، والتي تعنى الإيمان – المبنى على العقل – بوجود الخالق ، ولكنها لا تعترف بوجود الوحي (كما يجيء به الكتاب المقدس) . كما أكدوا على ضرورة فصل الكنيسة عن الدولة ١٩ . ولكن لم تقدم هذه الفلسفة أى معلومة إيجابية عن الله .. كما لم يتجاوز فكر فلاسفتها عن معنى " الديانة الطبيعية " ٢٠ ، أى فكر الفطرة البشرية عن وجود الله ، والحاجة إلى التدين ..

ومن فلاسفة عصر التنوير بإنجلترا ، الفيلسوف الإنجليزى جون تولاند (١٦٧٠ - ١٧٢١) ، فقد كان من المؤلمين الطبيعيين الذين يذهبون إلى القول بوجود إله صانع ، ولكنه لا يعترف بالوحي ولا بالسرائع ولا بالرسل ، كرد فعل طبيعى للوثنيات التى تحوينا الديانة المسيحية ، وانسحاب تجربته الدينية على الدين بصفة عامة ..

والفيلسوف والسياسى الداهية فرنسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) الذى كان يخدم فى بلاط ملك إنجلترا جيمس الأول (الذى كان يظن نفسه ضليعا فى اللاهوت) ، لم يستطع القول بإنكار اللاهوت الطبيعى للإله (أى إنكار الإله فى الصورة البشرية) ، وبدلا من محاولة مناقشة قضاياها المختلفة مناقشة داخلية ، نقل المشكله كلها إلى تسميات الفلسفة ونهجها حتى لا يتورط فى معركة كثيرة المزالق مع الكنيسة .

فى التقرير الذى رفعه بيكون ، إلى الملك جيمس الأول ملك إنجلترا ، عن كيفية إصلاح الحالة العامة للتعليم ، أوصى – بيكون – وصية أساسية هى ؛ بأن تتم المحافظة على هوية عميقة بين العلوم الطبيعية من ناحية ، وبين الدين واللاهوت المقدس من ناحية أخرى . ذلك

١٩ * المرجع فى الفكر الفلسفى " دكتورة نوال الصراف الصايغ ؛ دار الفكر العربى . ص : ٢٠٠ .

٢٠ وتُعرف " الديانة الطبيعية " بإسم " مذهب الربوبية : Deism " وهو المذهب الفكرى الذى يدعو إلى الإيمان بدين طبيعى مبنى على العقل لا على الوحي ، حيث يقول هذا المذهب بأن الله قد خلق الكون وهو يجرى الآن بدون تدخل منه . تماما كما تقول بأن صانع الساعة قد صنعها ، وهى تجرى الآن بدون الحاجة إليه بعد أن صنعها .

لأن الاتساجم والتكامل العلمي يتطلبان معا فصلا صارما بين هذين الجانبين . حيث كان يقول أن الفيلسوف الذي ينغمس في اللاهوت (أى فى الفكر الدينى) يخلق مذهباً خرافياً جامحاً ، على حين أن اللاهوتى (أى رجل الدين) الذى يهتم اهتماماً مغالياً بالفروق الفلسفية والكشوف العلمية ينتهى به الحال إلى الكفر والزندقة . ولهذا رأى أن المسلك السليم الوحيد هو إقامة ثنائية حادة بين العلوم الطبيعية والوحى الإلهى . وكان يقول أنه لسوء الحظ أن اللاهوت الطبيعى (أى الإله المتجسد) يقيم جسراً بين كلا من الميدانين ، وبالتالي ينبغى حرمانه من هذا الدور الوسيط ٢١ .

وهكذا يقرر الفيلسوف فرنسيس بيكون ، بأسلوب سياسى ، باستحالة الجمع بين العلم والدين المسيحى لأن هذا يؤدى بالإنسان إلى الكفر بالمسيحية ، وكذا استحالة الجمع بين العقل والدين المسيحى لأن هذا يؤدى إلى تأسيس مذهب خرافى جامح .

والفيلسوف الإنجليزى المادى ، توماس هوبز : Hobbes (١٥٨٨ - ١٦٧٩) كان يرى :

" أن الدين ليس أمراً من أمور الفكر ، وإنما هو أمر من أمور الاعتقاد .. ، ولا يجوز الخلط بين العقيدة والعقل . فحيث ينتهى العقل تبدأ العقيدة ، وحيث ينتهى العلم يبدأ الإيمان ٢٢ " . وهكذا كان يرى هوبز ، أن الدين والعقل لا يجتمعان ، كما وأن الدين والعلم لا يجتمعان .

ويأتى الفيلسوف الألمانى ؛ فيرباخ : Feuerbach (١٨٠٤ - ١٨٧٢) ، ليهاجم الدين المسيحى ، ويذهب إلى أن الشئ الحقيقى ليس هو " الله " ، ولا الوجود ، وإنما هى المعطيات الحسية فقط . ويضع فيرباخ ما يسمى بدين الإنسان مكان الدين المسيحى ، ويقول : " إن الشئ الإنسانى هو الشئ الإلهى " . وهو بذلك يتبنى نزعة إلحادية بحته ٢٣ ، كنتاج طبيعى ، كما نرى ، لما تمخضت عنه الديانة المسيحية من فكر وثنى إلى أبعد الحدود .

ثم تأتى الفلسفة الوجودية فى فكر سارتر .. بعبثتها (وهى معنونة فى هذا لخرافة ووثنية الديانة المسيحية) .. وليس للموت فى ذاته عند سارتر أهمية خاصة . فقط إنه العبث

٢١ " الله فى الفلسفة الحديثة " ، جيمس كولنز ، ترجمة فؤاد كامل . الناشر مكتبة غريب . ص : ١٣٣/١٣٢ .

٢٢ " تمهيد للفلسفة " د. محمود حمدى زقزوق ، دار المعارف . ص : ١٨٢ .

٢٣ المرجع السابق ؛ ص : ٢١١/٢١٢ .

الأخير ، وهو لا يقل عبثاً عن الحياة ذاتها ، فالموت يظهر عند سارتر في الفلسفة الوجودية كـ " جزء من الصفة " (أي صفة الحياة) ، على حد تعبيره ٢٤ .

ولكن ماذا يحدث عندما تحين ساعة رحيل المرء الكافر فعلا من هذه الحياة ؟ أو ماذا يحدث عندما يواجه الإنسان الملحد الموت فعلا ويصبح في لحظاته الأخيرة ؟ إننا لا نرى إلا الفزع يغلفه ويحيط به من كل جانب !!.. إنه يدرك في تلك اللحظات الأخيرة - بشعور فطري - ما هو مقدم عليه من هول ، وأنه لم يحقق الغايات من خلقه !!.. والآن ؛ قد حانت لحظة مواجهه مع الحقيقة الكاملة أو الحقيقة المطلقة وجها لوجه !!.. ويحاول ذلك الإنسان النجاة .. النجاة بأى شكل .. وبأى ثمن .. ولكن إلى أين يذهب ؟ حيث يقول المولى عز وجل (له ولأمثاله) :

﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) ﴾

(القرآن المجيد : التكويد {٨١} : ٢٦ - ٢٨)

[التفسير : إن هو إلا ذكر للعالمين : أي ما القرآن المجيد إلا تذكرة وموعظة للعالمين / لمن شاء منكم أن يستقيم : أي لمن أراد منكم تحرى الحق والصواب]

وتتلاشى الفلسفات في تلك اللحظات الأخيرة ، وتمر أحداث حياة المرء في لحظات أمام عينيه كشريط سينمائي معاد بسرعة هائلة ، ليدرك أنه قد أضاع الحياة فيما لا يفيد وفي سفسطة كلامية لا قيمة لها ، بدلا من إخلاص النية في البحث عن الله .. وفي محاولة يائسة أملا في النجاة ، يتمسك المرء بأى شيء !!.. فلا يجد لديه إلا الوثن القديم .. فيعود إليه .. أملا في النجاة .. ولكن أى نجاة هذه !!..!

ويأتى الموت الحقيقي لسارتر .. ويفزع ذلك الفيلسوف التائه الضال كأمثاله !!.. ويطلب سارتر قبل موته من رفيقة حياته " سيمون دي بوفوار " أن تأتي له بقس !!.. وتبدى (هذه البلهاء - هي الأخرى - والجاهله معا ، بيول هذا الموقف) دهشتها الشديدة واستنكارها لما يطلبه ذلك المسكين ، ثم تقول له : سأت لك بالكاردينال ، فيرد عليها بقوله : لا .. لا أريد كاردينالا .. إنه غشاش للإله (أي أنه أدرك الإله في لحظاته الأخيرة وكما تملبه عليه الفطرة السوية) ، إنما أريد قسا متواضعا ، من قرية متواضعة مغمورة ، وجاءت له بالقس !!..

٢٤ * الوجودية " ، جون ماكوري ؛ ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام ، مراجعة د. فؤاد زكريا . دار الثقافة للنشر والتوزيع . ص : ٢٨٧ .

واعترف له سارتر بهزيمته ٢٥ أمام الموت .. أملا في النجاة !!.. ولكن أى نجاة هذه !!.. حيث يصف حالهم المولى عز وجل في محكم تنزيله بقوله تعالى :

﴿ ... وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤) ﴾

(القرآن المجيد : الأنعام {٦} : ٩٣ - ٩٤)

سبحان الله !!.. ويتجاوز تفسير هذه الآيات إلى ما وراء الإعجاز العلمي ، والرؤية القاصرة للبشرية العاجزة ، لذا سيرجأ تفسيرها إلى كتابات أخرى إن شاء الله ٢٦ . وتترى الآيات العلمية والفيزيائية بعد هذه الآيات عميقة المعانى ، فى هذه السورة (الأنعام) ، لينهى المولى (ﷺ) هذه الفقرة ، بنفيه للنبوة التى تدعيها المسيحية عليه ، ثم بوصفه لنفسه ببعض كمالاته الإلهية التى لا نستطيع أن نحصيها عليه - سبحانه وتعالى هو محصيها - كما يصف كتابه العزيز بالبصائر ، وهى الرؤية المستيقنة التى لا يبقى معها أى شك أو ريب ، كما جاء فى قوله تعالى لنبيه (ﷺ) ليخبر عنه :

﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) قَدْ جَاءَكُمْ بِصَائِرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ (١٠٤) ﴾

(القرآن المجيد : الأنعام {٦} : ١٠١ - ١٠٤)

وهذا هو حال من لم يدرك هذا ..

٢٥ . د. رشدى فكار (المفكر الإسلامى) فى : حوار متصل حول مشاكل العصر ، خميس البكرى ، مكتبة وهبة . ص : ٦١ .
٢٦ أنظر " الدين والعلم ... وقصور الفكر البشرى " لنفس مؤلف هذا الكتاب .

﴿ ... وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) ﴾

(القرآن المجيد : النحل {١٦} : ٣٣)

والغريب أن موقف سارتر هذا كان قريب الشبه جدا من موقف فولتير^{٢٧} إزاء الموت . فقد طلب فولتير - بعد أن تدهورت صحته بشكل واضح - قسا ليسمع إقراره قبل موته ، ولكن القس رفض تقديم الغفران له ما لم يوقع على إقرارا بإيمانه بالمذهب الكاثوليكي إيمانا راسخا . ولكن فولتير ثارت ثورته لهذا الطلب وكتب بدلا من ذلك بيانا قدمه إلى سكرتيره (واجتر) ذكر فيه :

[إننى أموت على عبادة الله ، ومحبة أصدقائي ، وكراهية أعدائي ، ومقتى للخرافات والأساطير الدخيلة على الدين]

وقع على هذا البيان فى الثامن والعشرين من فبراير عام ١٧٧٨ . ومات فولتير بعد هذا البيان بثلاثة أشهر . وفى مقالة له موجهة إلى صديقه الملحد هولياخ ، نجده يقول :

[إن الخرافات الدخيلة على الدين تتحكم فى عالما البائس . هذه الخرافات والأساطير هى أقسى عدو لنا يصرفنا عن عبادة الله عبادة خالصة تليق به . دعنا نمقت شبح الخرافات التى أدخلت على الديانات فشوحتها . وأولئك الذين يحاربون الخرافات هم أصحاب الفضل فى الجنس البشرى . إن هذه الخرافات ثعبان يهز الدين .. ويجب علينا سحق رأسه من غير أن نجرح الأم التى تطعمه] ٢٨ .

ونتهى هذه الفقرة بالقول ، متفقين فى ذلك مع ما يقوله الفيلسوف الفرنسى روجيه جارودى^{٢٩} عن العالم المسيحى ومبشره :

٢٧ فولتير : Voltaire - الإسم الحركى لـ " فرنسوا مارى أروط : Francois Marie Arouet " - (١٦٩٤ - ١٧٧٨) مؤلف وفيلسوف فرنسى . يعتبر أحد أكبر رجال الفكر فى القرن الثامن عشر . تميز بقصصه الفلسفية التى ترجمت إلى أكثر من مائة لغة . أهم قصصه ؛ قصة " كانديد : Candide " ، وهى عبارة عن تحقيق فى طبيعة الخير والشر عند الإنسان .

٢٨ " قصة الفلسفة " ، ول ديورانت . ترجمة فتح الله المشعشع . مكتبة المعارف ، بيروت . ص (٣١٢/٣٠٢) .

٢٩ روجيه جارودى - لماذا أسلمت ؟ نصف قرن من البحث عن الحقيقة " دراسة أعدها محمد عثمان الخشت . مكتبة القرآن . ص : ٩٠ .

[بأنه تكاد تكون من سخرية الأقدار أنهم يريدون أن يفرضوا على الآخرين مسيحية يهزأون
منها في كل عمل من أعمالهم]

ولا أملك إلا قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) ﴾

(القرآن المجيد : الزمر {٣٩} : ٦٤)

٢. وتعود دورة الحياة (The Circle of Life) للتكرار ..

وتعود التجربة الدينية ، للديانتين اليهودية والمسيحية معا ، بالإنسان — ذلك التائه الحائر
— مرة أخرى إلى محاولة سبر غور المعرفة الإلهية ، معتمدا في ذلك على نفسه ..!! وعلى
نفسه فقط ... بعد أن تأكد أن ما لديه من أديان (متأثرا في ذلك بتجربته مع هاتين الديانتين
الوثنيتين) لا يصلح لأن يكون مصدرا للمعرفة الإلهية ، كما إنه لا يصلح لأن يكون منهاجا
إنسانيا أو إلهيا ، يمكن أن يتكبد به إنسان عاقل ، وذلك على الرغم ، من المحاولات المضنية
التي بذلها وبيذلها أئمة هاتين الديانتين لإسباغ نوع من الشرعية — الشكلية فقط وليست المنطقية
— عليهما .

وتعود دورة الحياة (The circle of life) بالإنسان مرة أخرى إلى الحالة التي كان عليها منذ
آلاف السنين في الماضي . ويقف إنسان العصر الحديث الآن ، نفس موقف إبراهيم (عَلَيْهِ السَّلَام)
قبل بعثته ، وهو يحاول التعرف على " الله " معتمدا في ذلك على نفسه ، وعلى فكره فقط .
ويشرح لنا القرآن المجيد حيرة إبراهيم (عَلَيْهِ السَّلَام) في البحث عن " الله " ، بالكلمات الإلهية
المحكمة ، في قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفَلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى
الْقَمَرَ بَارِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا
رَأَى الشَّمْسَ بَارِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ
(٧٨) ﴾

(القرآن المجيد : الأنعام {٦} : ٧٦ - ٧٨)

[أقل : غاب / بازغا : طالعا]

فالأيات تبين بوضوح — كما سبق وأن تعرضنا لها فى الفصل الثانى — أن غاية فكر إبراهيم — عليه السلام — قبل بعثته ، لم يتجاوز فكر إدراك أن الله موجود ، وأن من كمالات " الله " ألا ينبغى له أن يغيب عن مخلوقاته ؛ بل يجب أن يكون فى حضور دائم ومستمر معهم . ولكن من هو " الله " ؟ .. أهو كوكب ؟ .. أهو قمر ؟ .. أهو الشمس ؟ بديهى لا ؛ لأنها جميعها قد أفلت .. أى غابت ، ولا ينبغى لكمال " الله " أن يغيب عن مخلوقاته .

ولم يتغير الفكر البشرى فى معناه كثيرا ، متمثلا فى صفة مفكره من العلماء والفلاسفة ، عن فكر إبراهيم (عليه السلام) قبل بعثته . غاية فكر الإنسان عن " الله " إنه موجود .. ولكن من هو الله ؟ وماهى صفاته ؟ وماهى كمالاته ؟ فجميعها أمور لا يملك الإنسان التنبؤ بها مستندا فى ذلك إلى أى خبرة عملية أو واقعية ، أو أى فكر — باستثناء الفطرة — يمكن أن يدل على هذه الأمور ، كما سبق وأن بينا فى الفصل الثانى .

ويجد الإنسان وينشط فى البحث عن الله ، وفى البحث عن دين يتدين به ، بديهى عدا الأديان التى يدعى أهلها بأنها قادمة من السماء ، وهذا هو حال تجربته معها . أو تخصيصا ، هذا هو حال تجربته مع الديانتين (غير السماويتين) اليهودية والمسيحية ، وعدم صلاحيتهما فى أن يكونا مصدرا للدين والتدين . فهى تجربة فريدة تتحدث عن نفسها بأنها خير شاهد على فشل الفكر غير السماوى ، كما جاءت به تلك الديانتين !!..

وهكذا لم يبق للإنسان — المفكر — إلا ذاته ، ولم يبق له سوى الإعتماد إلا على نفسه ، وذلك فى محاوله منه للتعرف على الله .. ولكن من أين يبدأ ؟ .. وإلى أين يتجه ؟ ويذهب الإنسان إلى المذاهب الوضعية أو الفلسفية ، أو بمعنى آخر ، يتجه إليها لعله يجد لديها الحل ، أو يجد فيها الملاذ والسكن !!.. ويقف الإنسان من هذه المذاهب الوضعية ، نفس موقف إبراهيم ، قبل بعثته ، من الكوكب .. ومن القمر .. ومن الشمس . ويشير الإنسان إلى أحد المذاهب الوضعية أو الفلسفية .. ويقول هذا ربى .. ثم يتضح له خطأ ما يقول .. وخطأ ما يعتقد !!.. فيتركه (لأن المذهب أفل) !!.. ليذهب إلى مذهب آخر ويقول .. هذا ربى .. هذا أفضل .. ثم يتضح له خطأ ما يقول .. وخطأ ما يعتقد !!.. فيتركه إلى مذهب آخر !!.. وهكذا .. ويتكرر الاعتقاد .. وتتكرر الأخطاء .. وبغير نهاية !!.. ولم ينتبه خلاصة مفكرى الإنسانية ، إلى ما تنبه إليه إبراهيم (عليه السلام) قبل بعثته ، وهو : " أنه لا سبيل إلى معرفة الله إلا بالله " .. ولهذا نجد إبراهيم (عليه السلام) يقول فى نفس الآيات السابقة :

﴿ ... لَنْ لَمْ يَهْدِنِ رَبِّي لِأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) ﴾

(القرآن المجيد : الأنعام {٦} : ٧٧)

إذن فالمعرفة الإلهية لن تتأتى إلا بالإخبار " الإلهي " عن نفسه ، وهي معرفة لا تنتج عن فكر تأملي أو تجربة معملية يقوم بها الإنسان . بل هي معرفة إخبارية — محضة — يتحدث فيها " الله " عن نفسه ، ويقدم فيها " الله " نفسه للبشرية ، لتعريفهم به ، وبكلماته الإلهية .

إن قمة الإدراكات البشرية ، متمثلة في فكر الأنبياء والرسل قبل بعثتهم ، هو مجرد إدراك أن الله موجود وإنه واحد فحسب ، ومن كمالته ألا ينبغي له أن يغيب عن مخلوقاته ، بل يجب أن يكون في حضور دائم ومستمر معهم . كما أدرك الأنبياء — قبل بعثتهم — أن معرفة الله لن تتأتى ، ولن تتم إلا بإخبار الله (ﷻ) عن ذاته وعن صفاته . وهذه هي غاية إدراكات الإنسان الفطرية ، والمتمثلة في نقاء فكر الإنباء وصفاء فطرتهم ٣٠ .

وليقف الإنسان ذلك العاجز ، إن لم يدرك هذا ، حائرا في هذا الوجود .. ليترنم بصوته النابع من أعماقه .. ليعبر بكل كلمة يتغنّى بها — بدون أن يدري — عن ندائه المتواصل على الله .. ويعبر بكل لحن يشدو به — بدون أن يدري — عن بحثه الدائب والمتصل عن الله .. وليردد ذلك الفضاء اللامتأه .. صدح هذا الإنسان الحائر ، وليحكى الوجود .. قصة هذا الضياع .. ضياع ذلك الإنسان الحائر الذي ينادى في كل لحظة .. وفي كل حركة .. وفي كل سكنه .. بدون أن يدري .. على الله .. وهو — في نفس الوقت — يصم أذنيه حتى لا يسمع استجابة الله له ..!! بل ويغمض عينيه .. حتى لا يرى تجلياته عليه ..!!!

ويتجلى " الله " هنا ... ويتجلى " الله " هناك ... ولتعيد دورة الحياة (The circle of life) نفسها .. هكذا .. وبغير نهاية ..!!

وليتكرر الإنسان .. وليكرر إنسان بداية القرن الواحد والعشرين ، إنسان نوح (ﷺ) منذ آلاف السنين ..!! عندما يشكى — نوح — حاله وحال قومه إلى الله (ﷻ) على الرغم من كثرة دعائه لهم .. ولكن بلا طائل . فيخبرنا المولى عز وجل بقول نوح ، في قوله تعالى :

٣٠ وهذه هي الفطرة التي نولد عليها ، والتي يمكن أن تسمى بلغة الكمبيوتر (The Default) ، أي مالم يذكر غير ذلك ، كما سبق أن بينا في الفصل الثاني .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُنْتُ مَدْعُوهُمْ لَتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ (٧)

(القرآن المجيد : نوح {٧١} : ٥ - ٧)

[فرارا : تباعدا ونفارا عن الإيمان / استعشوا ثيابهم : بالفوا في التغطى بها كراهة لنوح وحتى لا يروه]

ويستعشى إنسان بداية القرن الواحد والعشرين بثيابه (ليغطي بها وجهه) — كقوم نوح تماما منذ آلاف السنين — حتى لا يرى الدين الحق . ويضع إنسان بداية القرن الواحد والعشرون ، أصابعه في آذانه — كقوم نوح تماما منذ آلاف السنين — حتى لا يسمع ما يجيء به الدين الحق من علم . بل ويستكبر ويصر إنسان بداية القرن الواحد والعشرون ، على كفره إصرارا ..

وتجرى سورة نوح بعد ذلك ، وتتوالى في وصف السنن الكونية بإحكام بالغ ، لتنبئه قوم نوح ، وتنبئه إنسان بداية القرن الواحد والعشرين ، إلى وجود " الله " ، خالق كل شيء سبحانه وتعالى ، حتى نأتى إلى قوله تعالى :

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) ... ﴾ ٣١

٣١ لعمري .. أقف والعجز يغلفني .. ولا أدري ماذا أقول عن تفسير هذه الآيات ، وحول هذا الإحكام المذهل الوارد فيها .. أدرك مسيحيوا الخروف .. قوله تعالى : ما لكم لا ترجون لله وقارا ..؟! أدرك محدودى فكر النظرية الدارونية .. قوله تعالى : وقد خلقكم الله أطوارا (أنظر الملحق الرابع) ..؟! ولم يدرك علماء الكونيات حتى الآن ، ولن ندرك نحن ، ولن ندرك إلا به (إلا بالله) .. قوله تعالى : .. سبع سماوات طباقا .. ولم ندرك ولن ندرك إلا به .. قوله تعالى : وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا .. ولم ندرك ، ولن ندرك إلا به .. قوله تعالى : (.. فيهن ..) ، ولقد أدركنا أخيرا (به) .. معنى القمر نورا .. والشمس سراجا .. والنور في القرآن المجيد هو الضوء المنعكس من الأجسام المظلمة ، أما السراج .. فهو الجسم المشع بذاته .. هناك إحكام أبعد من هذا .. أم أن هناك إحكاما أبعد من هذا .. أم إنه القرآن المجيد .. وفعلنا هو القرآن المجيد ..

﴿ قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَنْكُونَ وَيَبِيدُهُمْ خُسْرًا (١٠٩) ﴾

(القرآن المجيد : الإسراء {١٧} : ١٠٥ - ١٠٩)

(القرآن المجيد : نوح {٧١} : ١٣ - ١٦)

ومع هذا ؛ لم يكف قوم نوح عن عبادة الأصنام ، وعبادة الأوثان ، فماذا كانت النتيجة ..

﴿ مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُعْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (٢٥) ﴾

(القرآن المجيد : نوح {٧١} : ٢٥)

أى بخطيئاتهم أغرقوا ، وليس هذا فحسب .. بل أدخلوا النار أيضا جزاءا وفاقا على إهدارهم عقلم إلى هذا الحد المتردي !!.. وبديهى أن هذا ليس فعلا جزافيا من أفعال الرب ، كما يقول أريك فروم ، بناء على وصف العهد القديم لهذه القصة (أنظر كذلك الفصل السابق) ٣٢ ، بل هى قوانين ميتافيزيقية لم يحققها الإنسان ، أو هى عدالة إلهية لإنسان لم يحقق الغايات التى خلق من أجلها ، وأقر هو (أى الإنسان) لقبوله لهذا الخلق ، وعلى أساس قبوله لهذه الغايات . وهكذا يدخل الإنسان نارا أرادها لنفسه ، وبكامل اختياره !!..

ويردد الله قوله تعالى للإنسان لعله يتذكر أو يخشى ..

﴿ ... وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ﴾

(القرآن المجيد : النحل {١٦} : ١١٨)

﴿ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) ﴾

(القرآن المجيد : الزخرف {٤٣} : ٧٦)

﴿ ... وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) ﴾

(القرآن المجيد : النحل {١٦} : ٣٣)

وتنتهى قصة الإنسان .. وتنتهى حياته .. ليقف وجها لوجه مع الحقيقة المطلقة .. ليقول له الله تعالى فى محكم تنزيله :

٣٢ " الدين والتحليل النفسى " ، أريك فروم ، ترجمة فؤاد كامل . دار غريب للطباعة . ص : ٤٤ .

﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾ (١٣) اقرأ
كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿ (١٤)

(القرآن المجيد : الإسراء {١٧} : ١٣ - ١٤)

[ألزمناه طائره : ما قضى له - فى العلم الإلهى السرمدى - أنه عامله وما هو صائر إليه]

وأرجو أن ينتبه الإنسان إلى قوله تعالى : ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ .
وهكذا لم يحقق الإنسان الغايات من خلقه ، وهكذا لم يحقق الإنسان الغاية من استخلافه على
الأرض .. وعبادة الله (ﷻ) .. ولتعيد دورة الحياة (The circle of life) نفسها .. وبغير
نهاية !!..

وفى الحقيقة ، إن المتتبع للفكر الفلسفى يشعر بالرتاء على الإنسان .. وعلى المأزق الفكرى
الذى أوقعته فيه الديانتين اليهودية والمسيحية . فقد أوقعته هاتين الديانتين - وهو لا يدري -
فى أكبر مأزق فكرى على مدار تاريخه وحضاراته . وقد انعكس آثار هذا المأزق الفكرى ،
وإن لم يكن فى هذا أدنى مبالغة ، على فكر الفلاسفة والمفكرين الغربيين ، حتى أصبح الآن ،
كما كان من قبل ، يدور حول كيفية الجمع أو التوفيق بين فطرة ناصعة مدركة لوجود الهى
متعال ذى صفات كمالات مطلقة ، وبين دين هابط دون مستوى الحضيض ، يقول بوجود إله
وثى وخرافى .. قبل بأن يضرب بكل نعال الأرض من الإنسان مخلوقه .. تحت دعوى محبته
للإنسان !!.. وهكذا أنتجت التجربة الدينية اليهودية/المسيحية : إما إنسانا يحاول الجمع بين
المتناقضات ، لهذا يتهمه علماء النفس بالمرض - النفسى - عندما يجدوه يجد فى البحث عن
المبررات الفاقدة للعقل والمنطق معا حتى يمكنه الاحتفاظ بالدين بشكله الراهن ؛ وإما إنسانا
يحترم عقله ، ويرفض هذا الفكر الدينى والإلهى الوثنى برمته !!.. ثم يذهب يتحرى وجود
الحقيقة فى مكان آخر ، فى شكل فلسفة ما .. أو مذهب ما !!.. عدا البحث عن الله بشعور
مخلص فى دين حق ، بعد أن كفر بدينه هو !!..

٣. الفلسفة ٣٣ منذ نشأتها وحتى الفلسفات المعاصرة ..

• ولماذا الفلسفة ؟

فى الواقع ؛ أن نظرية المعرفة (Epistemology) ، ونظرية الوجود (Ontology) ، ونظرية القيم (Axiology) ٣٤ ، هى من موضوعات الدين الأساسية ، وهى فى نفس الوقت من صميم علم الفلسفة ، فليست هناك ثمة علوم أخرى يمكن أن تقوم بالرد على مثل هذه الأسئلة ، إلا الفلسفة .

• ولماذا الفلسفة منذ نشأتها وحتى الفلسفة المعاصرة ؟

ربما كان هذا أساسيا ولازما ، حتى نضمن عدم سقوط أو تسرب أى فكر من بين أيدينا يمكن أن يفيد فى بحثنا هذا عن قضية الوجود والمصير ، من جانب ؛ وحتى لا يدعى أحد بأن هناك أنظمة فلسفية (أى وضعية) يمكن أن نقودنا للحقيقة .. أى حقيقة .. من جانب آخر...!! ولم نتناولها بالبحث فى هذا الكتاب !!..

فالهدف من هذا العرض ، هو الإجابة على السؤال الذى يقول : وماذا قدم خلاصة المفكرين – من علماء وفلاسفة – للبشرية من فكر يمكن أن يعتمد عليه فى تحديد هوية الإنسان ووجوده ، وتحديد طبيعة المصير الذى يمكن أن ينتهى إليه الإنسان . وكذا تحديد هوية خالق هذا الوجود – سبحانه وتعالى – وصفاته ؟ وهل يوجد نظام فلسفى يصلح بأن يحل مكان الدين .. ويتكبد به الإنسان !!..؟

وبديهى لكى نقوم بالإجابة على مثل هذا السؤال ، لابد لنا وأن نعرض لقصة الإنسان مع الفلسفة ، وماذا قدمت له الفلسفة من فكر يمكن أن يعول عليه فى الرد على مثل هذه التساؤلات السابقة . لذا كان يلزم أن نبدأ بالفلسفة منذ بداية الحضارة الإنسانية وننتهى بالفلسفات المعاصرة أى فلسفات القرن العشرين (والواحد والعشرين) . وبديهى إن مثل هذا العمل ، هو عمل

٣٣ تتكون كلمة (Philosophy) من مقطعين يونانيين (Philia) وتعنى : حب ؛ وكلمة (Sophia) وتعنى : حكمة . وبهذا يكون معنى كلمة فلسفة ، هى " حب الحكمة : Love of Wisdom " (أنظر الملحق الرابع من هذا الكتاب لمزيد من التفاصيل) .

٣٤ أنظر الملحق السادس من هذا الكتاب للتفاصيل .

موسوعى يحتاج لعدة مجلدات ضخمة لبيانه وتحليله . وبديهي لن نقوم بمثل هذا العمل ، وإلا تهنا فى التفاصيل وضاع من بين أيدينا الهدف المنشود . ولكن ما يعنينا الآن ، هو الرؤية الكلية أو الإجمالية لما أسفرت عنه الفلسفات من أفكار كلية تخدم أغراض البحث هنا ، من حيث وجود الإنسان ومصيره ، وكذا الغايات من وجوده ، وطبيعة الخالق على نحو مجمل . ولحسن الحظ إن مثل هذا العمل يمكن تقديمه فى صفحات قليلة ، كما نعرضه هنا ، مبتدئين فى ذلك بالقصة من بدايتها التاريخية .. والتي نتلخص فى الفلسفات التالية :

١. " العصر الشرقي القديم ؛ ما قبل الفلسفة اليونانية القديمة : Before the Ancient Greek Philosophy " (وهو عصر بدأ منذ بضعة آلاف من السنين وحتى القرن السابع قبل الميلاد) .

٢. " عصر الفلسفة اليونانية القديمة : Ancient Greek Philosophy " . (وهو عصر بدأ من حوالي سنة ٦٠٠ قبل الميلاد إلى حوالي سنة ٤٠٠ بعد الميلاد) .

٣. " فلسفة العصور الوسطى : Medieval Philosophy " (بدأ من حوالي القرن الخامس الميلادي إلى حوالي منتصف القرن الخامس عشر الميلادي) .

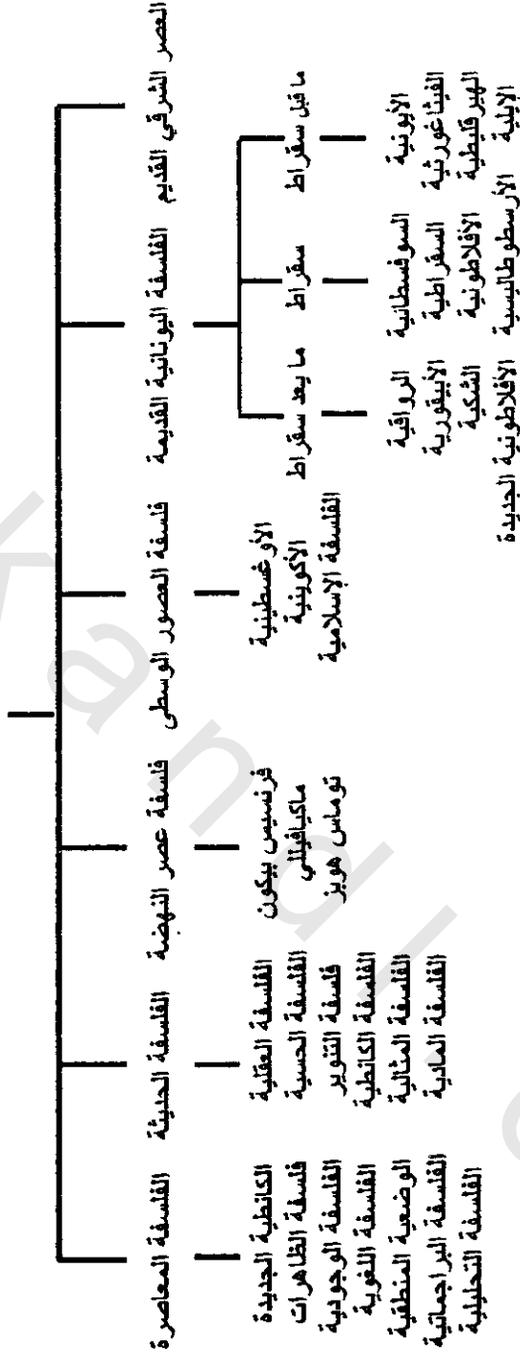
٤. " فلسفة عصر النهضة : Renaissance Philosophy " (بدأ من القرن الرابع عشر الميلادي ، وحتى القرن السادس عشر) .

٥. " الفلسفة الحديثة : Modern Philosophy " (بدأ من منتصف القرن الخامس عشر الميلادي تقريبا ، وحتى نهاية القرن التاسع عشر) .

٦. ثم أخيرا " الفلسفات المعاصرة : Contemporary Philosophy " (والتي بدأت من نهاية القرن التاسع عشر وخلال القرن العشرين وحتى الوقت الحاضر) .

والشكل التالي يبين عصور الفلسفة البشرية وتفصيلاتها منذ فجر التاريخ وحتى الفلسفات المعاصرة على نحو إجمالي .. حتى يسهل على القارئ تتبع العصور الفلسفية .. ومعرفة موقع ومكان الفلسفات المختلفة فى التاريخ بنظرة عابرة إلى الشكل .

الفلسفة البشرية منذ فجر التاريخ وحتى الفلسفات المعاصرة



شكل إجمالي يبين الفلسفة منذ فجر التاريخ وحتى الفلسفات المعاصرة

وفي هذه الفقرة سوف أكتفى بأن أعطي المعالم العامة لكل مرحلة من مراحل الفكر الفلسفي ،
على طول تاريخ الحضارة الإنسانية^{٣٥} ، مع الإشارة في نفس الوقت إلى أهم الفلاسفة
وفلسفتهم في كل مرحلة . وهذا ما فيه الكفاية لبيان ما قدمته الفلسفة للإنسان وللدن .

والآن إلى رحلة الفلسفة منذ بدء الحضارة البشرية وحتى الفلسفات المعاصرة ، لنرى ماذا
قدمت للإنسان .. من فكر حول الوجود ، والمصير ، والغايات من الخلق ، وكيفية رؤيتها للإله
الخالق .. سبحانه وتعالى عما يصفون ..

٣ . . . العصر الشرقي القديم .. عصر ما قبل الفلسفة اليونانية القديمة :

Before the Ancient Greek Philosophy

كان يلزم التتويه هنا إلى أنه قبل ظهور الفلسفة اليونانية القديمة ، كان هناك العصر
الشرقي القديم ، والذي يبدأ منذ بضعة آلاف من السنين قبل ميلاد السيد المسيح ، ويستمر هذا
العصر حتى حوالي منتصف القرن السابع قبل الميلاد . وتمثل تلك الحقبة الأولى السحيقة فجر
الضمير الإنساني ، وبداية ظهور الفكر الأخلاقي والحكمة الدينية في الحضارات القديمة التي
كانت في مصر وبابل وأشور . كما كانت في فارس والهند والصين . وكان من أبرز حكماء
ذلك العصر الشرقي القديم : " بوذا " ٣٦ و " كونفوشيوس " ٣٧ و " زرادشت " ٣٨ إلى جانب
بعض ملوك حضارة مصر القديمة مثل " إخناتون " الذي نادى بالتوحيد .

٣٥ هناك أسلوب آخر في عرض الفلسفة ، غير هذا العرض التاريخي ، وفيه يتم عرض الفلسفة من
خلال الميادين الأساسية لها وهي : مبحث الوجود (Ontology) ، ومبحث المعرفة
(Epistemology) ، ومبحث القيم (Axiology) ، غير أن ما اتبع هنا هو العرض التاريخي حتى
أتجنب تكرار أسماء الفلاسفة من جانب ، كما يفضل إعطاء فكر متكامل عن الفيلسوف أيضا في هذه
المباحث وليس فكريا جزئيا عن كل حالة ، من جانب آخر . (أنظر الملحق السادس من هذا الكتاب) .

٣٦ جوتاما بوذا (٥٦٣ - ٤٨٣ ق.م .) مؤسس الديانة البوذية ، وقد سبق الكلام عنه في الفصل
الثاني .

٣٧ كونفوشيوس (٥٥١ - ٤٧٩ ق.م .) فيلسوف صيني أقام مذهب يضم كل الأفكار الصينية عن
السلوك الإجتماعي والأخلاقي ، وعلى أن تكون هناك حكومة تخدم الشعب تطبيقا لمثل أخلاقية عليا .
وقد ظلت هذه الأفكار تتحكم في سلوك الناس أكثر من ألف سنة . وكثيرا ما يوصف كونفوشيوس بأنه
أحد مؤسسي الديانات الكبرى (الديانة الكونفوشيوسية) ، ولكن هذا التعبير غير دقيق فمذهبه غير
ديني . فهو لا يتحدث عن الله أو عن السموات ، وإنما مذهبه : هو طريقة في الحياة الخاصة
والسلوك الإجتماعي والسياسي . ومذهبه يقوم على الحب ؛ حب الناس وحسن معاملتهم والرقّة في
الحديث والأدب في الخطاب ، ونظافة اليد واللسان . وكذا إحترام الأكبر سنا والأكبر مقاما ، وتقديس
الأسرة . ومن الحكم الماثورة عن كونفوشيوس " أحب لغيرك ما تحبه لنفسك " .

٣.١ . الفلسفة اليونانية القديمة (Ancient Greek Philosophy)

ثم يأتي بعد هذا العصر الشرقي القديم الفلسفة اليونانية القديمة ، وهي تمتد حوالى عشرة قرون . تبدأ من حوالى منتصف القرن السابع قبل الميلاد (حوالى سنة ٦٠٠ ق . م) ، وتنتهى عند أوائل القرن الخامس الميلادى (حوالى سنة ٤٠٠ بعد الميلاد) . وقد بلغت الفلسفة اليونانية قمة نضجها فى ذلك العصر على أيدى سقراط وأفلاطون وأرسطو . ثم بدأت هذه الفلسفة بالتدهور تدريجيا مع نهاية هذا العصر ، حتى إنطفت شعلة الحضارة اليونانية ، مع بداية ظهور فلسفة العصور الوسطى (Medieval Philosophy) . وتتسم الفلسفة اليونانية القديمة ، بثلاث مراحل أساسية هى : مرحلة ما قبل سقراط ، ومرحلة سقراط ، ومرحلة ما بعد سقراط . وأهم إتجاهاتها الفكرية سوف نعرضها فيما يلى .

٣.١.١ . المرحلة الأولى : مرحلة ما قبل سقراط (Pre-Socratic Era)

وتشمل أربع فلسفات هى : الفلسفة الأيونية ، والفلسفة الفيثاغورية ، والفلسفة الهيرقليطية ، ثم الفلسفة الإيلية ، وأهم إتجاهاتها الفكرية هى كالنحو التالى :

٣٨ زرادشت إيرانى المولد (٦٢٨ - ٥٥١ ق.م) مؤسس " الديانة الزرادشتية : Zoroastrianism " ، التى عاشت (٢٥) قرنا ، ولا يزال لها أتباع حتى اليوم غير أنهم قليلون . و الديانة الزرادشتية تؤمن بضرورة الخير وإتباعه . ويرفض زرادشت الزهد والإمتناع عن الزواج . والزرادشتيون يؤمنون ببعض الطقوس مثل تقديس النار والصلاة حولها وأمامها ، والإحتفاظ بها مشتعلة دائما فى المعابد . ومن أهم تقاليدهم التخلص من الميت : لا يدفنه أو بإحراقه ، ولكن بوضعه فى مكان مرتفع لتأكله الطيور الجارحة ، وهذه الطيور تجرد الجثث من اللحم فى ساعات قليلة . فهم يرون أن إحراق الجثة أو دفنها يندس العناصر المادية ، لذا فلا بد من أن تعرض الجثث فوق " أبراج الصمت " لتلتهمها الطيور الجارحة .

وتقول الديانة الزرادشتية بوجود إلهين أحدهما هو " أهورا مزدا : Ahura Mazda " ويمثل الخير ، والآخر هو " أهريمان : Ahriman " ويمثل الشر ؛ وبأن الصراع بينهما لا ينقطع . كما تقول بأن على أتباع أهورا مزدا (إله الخير) أن يلتزموا نظاما أخلاقيا صارما لى يصبحوا طاهرى الفكر والقول والعمل . وقد انتشرت الزرادشتية فى إيران وأصبحت ديانته الرسمية فى عهد الساسانيين . ولكن مزندك الزعيم الدينى الفارسى المتوفى عام ٥٢٨ للميلاد سرعان ما قاد حركة اشتراكية مناهضة لهذه الديانة . واطمحت الزرادشتية بعد ظهور الإسلام وتلاشت . وهى غير معروفة الآن إلا فى مواطن معزولة من إيران ، وفى بعض الأحياء الهندية حيث تعرف باسم " البارسية : Parsiism " ، حيث يفوق عدد أتباعها (حوالى مئة وعشرين ألفا) ، وعدد الزرادشتيين فى إيران الذى يصل إلى حوالى عشرين ألفا لا غير .

[١] الفلسفة الأيونية (Ionian Philosophy) :

يعتبر طاليس : Thales (٦٢٤ - ٥٤٦ ق . م) هو مؤسس الفلسفة الأيونية (نسبة إلى أيونيا ٣٩) . ويسود الاعتقاد بأن طاليس هو أول فلاسفة اليونان ، كما تعتبر فلسفته علمية ، لأنه كان يبحث عن قانون عام يمكن أن تنسب إليه مفردات هذا الوجود . وقد قال بأن الماء هو أصل الأشياء ، وهو العنصر الأساسي للحياة .

ثم يأتي الفيلسوف الثاني في هذه المدرسة ، وهو أنكسيمندر : Anaximander (٦١١ - ٥٤٧ ق . م) ، وقال بأن هناك عنصر آخر أكثر أولوية من الماء ، وأطلق عليه اسم " اللامتناهي واللامحدود : Aperion " ، وهو الذى تتكون منه السماوات والعالم . وهذا العنصر اللامتناهي ، مكون من الأضداد التى كانت متحدة ثم انفصلت . ويعتبر تفكيره هذا بداية للتفكير الميتافيزيقي . وقد قال أنكسيمندر كذلك بأن الأرض لا تقوم على قاعدة - كما كان يعتقد طاليس - بل هي معلقة وسط السماء وثابته في مكانها ، وعلى مسافة متساوية من الأجرام السماوية .

ثم نأتى بعد ذلك إلى أنكسيمينس : Anaximenes (٥٨٥ - ٥٢٨ ق . م) ، الفيلسوف الثالث في هذه المدرسة ، الذى جعل من الهواء المادة الأولى كمصدر للأشياء ، بدلا من الماء الذى قال به طاليس . وقال بأن الهواء جاءت منه الإلهيات .

[٢] الفلسفة الفيثاغورسية (Pythagorean Philosophy) :

ومؤسسها فيثاغورس : Pythagoras (٥٧٢ - ٤٩٧ ق . م) ، ويعتقد الباحثون بأنه أول من جاء بلفظ " فلسفة " . وأسس فيثاغورس مدرسته في كروتون في جنوب إيطاليا ، وكانت ذات أهداف دينية وعلمية . وقال فيثاغورس بأن الروح الإلهية هي القوة الفكرية لمعرفة الحقيقة الثابتة . فالروح هي الألهة والجسم سجين لها . وقد وجد الفيثاغورسيون أن تفسير أصل الموجودات على أساس ردها إلى مادة واحدة غير مقنع ، لأن هذا يوحى بأنه لن يمكن التمييز بين هذه المفردات إذا كانت كلها من مادة واحدة . وقد وجد الفيثاغورسيين بين

٣٩ أيونيا (Ionia) : هي المنطقة الحضارية القديمة التى كانت تقع غرب آسيا الصغرى ، والتى كانت تمتد على طول شاطئ بحر إيجه (the Aegean Coast) . وبحر إيجه هو الذراع الشمالى من البحر الأبيض المتوسط الذى يقع بين اليونان وتركيا . وكانت هذه الحضارة لها لغة خاصة بها هي اللغة الأيونية ، والتى تنسب إليها الفلسفة .

عالم الموجودات وعالم الأعداد . فالأعداد بالنسبة لهم تصور وليست مقدار . وقد رمزوا للعقل بالواحد ، والظن بإثنين ، لأنه تردد بين طرفين ، ورمزوا للوقت بسبعة لأنه يقابل أيام الأسبوع .. وهكذا .

وقد تطورت نظرية العدد لدى الفيثاغورسيون لتصبح أساس الموجودات ، على أساس أن النقاط صدرت من الأعداد ، ومن النقاط تكونت الخطوط ، ومن الخطوط تكونت المسطحات ، ومن المسطحات تكونت المجسمات ، ومن المجسمات تكونت الأجسام المحسوسة وعناصرها الأربعة هي : النار ، والهواء ، والأرض ، والماء . وقال الفيثاغورسيون أيضا بأن نظرية الأعداد تقود إلى أن الشمس والقمر والكواكب الأخرى هي آلهة (لاحظ هنا أسطورية الفكر العلمي) ، وما تبعته من حرارة هو علة الحياة . والبشر يقتربون من الآلهة لأنهم يشاركون في الحرارة ، وبذلك ترعاهم الآلهة ، وهكذا يسير العالم لقدره .

[٣] الفلسفة الهيرقليطية (Heraclitean Philosophy) :

ومؤسسها هيرقليطس : Heraclitus ، وهو فيلسوف يوناني (٥٣٦ - ٤٧٠ ق . م) ، وأهم ما يميز فلسفته هو قبول " التغيير كقانون لجميع الموجودات " ، ولولا التغيير لم يكن هناك شيئا . والتغيير يتم وفق قانون عام هو " اللوجوس أو اللوغوس : Logos " ^{٤٠} ويعنى الجوهر الإلهي والعقل الإلهي . ويتم التغيير حين يصير الشيء إلى ضده ، ولذلك تعتبر الأضداد متحدة مع بعضها . ونظريته بالتغيير تعنى صراعا بين الأضداد ؛ مثل الخير والشر ، والصحة والمرض ، والعمل والراحة ، والبارد والحار ، والجاف والرطب .. ولا يوجد واحد بدون ضده . فلولا الشر ما كان الخير ، ولولا العمل ما نعمنا بالراحة .. وهكذا .

وقد أرجع هيرقليطس جميع الأشياء إلى النار ، ويرى أنها المبدأ الأول التي يصدر عنها كل الأشياء . وليس النار هنا هي النار المحسوسة ، بل هي النار الإلهية الأزلية . فهي حياة العالم وقانونه هو " اللوغوس " . وعندما يعترى النار الإلهية الوهن تصير النار المحسوسة ، ويتكاثف بعض هذه النار فتصير بحرا ، ويتكاثف بعض البحر فيصير أرضا ، وترتفع الأبخرة من الأرض والبحر فتصير سحبا ، فتلتهب السحب وينقذ منها البرق وتعود نارا ، أو تنطفئ السحب فتكون العاصفة وتعود النار إلى البحر ، وتتكرر الدورة (لاحظ هنا أيضا أسطورية

^{٤٠} تعنى كلمة " لوجوس " - أيضا - في الفكر المسيحي : السيد " المسيح عيسى بن مريم " ؛ أو " كلمة الله " ؛ أو " الإله المتجسد في الصورة البشرية " .

الفكر العلمي) . والنفس البشرية متصلة بهذه النار الإلهية ، وهي عرضة للتحول نحو الجفاف ، أو نحو الرطوبة والماء . وفي الحالة الأولى يزداد نصيب النفس من العقل والصلاح ، وفي الحالة الثانية – الجفاف – يدرك النفس الفساد .

[٤] الفلسفة الإيلية (Eleatic Philosophy) :

وأهم فلاسفتها ، بارمنيدس : Parmenides (٥١٥ - ٤٤٠ ق . م) ، وقد تتلمذ على أيدي إكسينوفون : Xenophone (٥٧٠ - ٤٨٠ ق . م) الذي قال بوحدة الوجود ، ويعنى أن الوجود واحد ، هو أرفع الموجودات السماوية والأرضية ، وأنه ليس مركبا على هينتنا أو مفكرا مثل تفكيرنا ، وهو لا متحرك بل ثابت يحرك الكل بعقله . وبذلك اختلف عن سابقه من الفلاسفة الذين افترضوا موجودا واحدا كالماء أو الهواء أو النار ثم استخرجوا منه كثرة الأشياء بالحركة والتغير ، فوصفت فلسفتهم بتفكيرها المادى ، بينما وصفت فلسفة إكسينوفون بتفكيرها الميتافيزيقى (أي العقلي) .

وقد قال بارمنيدس بنوعى المعرفة العقلية والحسية . والمعرفة العقلية لديه تتميز بأنها ثابتة و كلية ، بينما المعرفة الحسية تتميز باتجاهها العلمي . وتعتبر أفكار بارمنيدس نقطة البداية التي نشأ منها تفكير أفلاطون المثالي ، وتفكير أرسطو المنطقي ، وتطور فيما بعد إلى الفكر الأوربي بنوعيه ؛ التفكير الميتافيزيقى (العقلي) والتفكير العلمي (التجريبي) ٤١ .

٣ . ١ . ٢ . المرحلة الثانية : مرحلة سقراط (Socratic Era)

وتشمل هذه المرحلة أربع فلسفات هي : الفلسفة السوفسطائية ، والفلسفة السقراطية ، والفلسفة الأفلاطونية ، ثم أخيرا الفلسفة الأرسطوطاليسية ، وأهم اتجاهاتها الفكرية تأتي على النحو التالي :

[١] الفلسفة السوفسطائية (Sophism) :

وأهم فلاسفتها بروتاغورس : Protagoras (٤٨٠ - ٤١٠ ق . م) ، وجورجياس : Gorgias (٤٨٠ - ٣٧٥) . وترجع الفلسفة السوفسطائية إلى كلمة سوفسطائي (Sophist)

٤١ كما سبق وأن ذكرت ، فإن التفكير الميتافيزيقى : هو التفكير الذى يبدأ بالذات والتجربة العقلية من حدس (Intuition) وتأمل واعتماد على البديهيات . أما التفكير العلمي : فهو التفكير الذى يبدأ بالعالم الخارجى ، والتجربة الموضوعية من حسابات ومختبرات وإثباتات علمية .

، ومعناها " المعلم " أو " معلم الخطابة " بنوع خاص . حيث أخذ السوفسطائيين على عاتقهم تعليم الشباب أسلوب الخطابة ، وفن النجاح في الحياة العملية وكيفية الوصول إلى المناصب وكسب الأصدقاء . وتتميز هذه الفلسفة السوفسطائية بالشك المذهبي أو المطلق^{٤٢} ، الذى لا يعترف بوجود خطأ أو صواب ، أو حق أو باطل . ولهذا أخذ السوفسطائيين التلاعب بالألفاظ اللغوية والمغالطات المنطقية ، التى تجعل من الحق باطلا ومن الباطل حقا . وأصبحت التعاليم السوفسطائية موضع نقد من الفلاسفة أمثال سقراط وإكسينوفون (أو زينوفون) وأفلاطون ، لغياب المعايير لديهم ، كما وأن المعرفة أصبحت لديهم غاية منفعية فحسب .

وقد أتهم بروتاغورس – أهم فلاسفتها – بالإلحاد لأنه قال : لا أستطيع أن أعلم إن كانت الآلهة موجودة أم غير موجودة ، لأن هناك أمورا كثيرة تحول بينى وبين هذه المعرفة وهذا العلم ، منها غموض الموضوع ، وقصر العمر . وقد أدين بروتاغورس لأرائه هذه وحكم عليه بالإعدام ، وفر هاربا غير أنه توفى غرقا أثناء فراره . وفى أسطورة منسوبه إليه يقول :

" أن الإلهين إيميثيوس (Epimetheus) وبروميثيوس (Prometheus) كانا قد كلفا بتوزيع المواهب والقدرات على المخلوقات . وفى عملية التوزيع وهب أيميثيوس الحيوانات مالها من قدرات لكى تساعدها على الحياة . وعندما جاء دور الإنسان لم يتبق له من المواهب شئ . فسرق له بروميثيوس النار وفنونها من الآلهة ووهبها له عطايا عليه^{٤٣} . ورغم إن قوة

^{٤٢} هناك ثلاثة أنواع من الشك فى الفكر الفلسفى هى :

- (١) الشك المنهجي أو العلمى : وهو شك مؤقت ، يبدأ به الفيلسوف أو العالم ثم يتحول منه إلى اليقين بعد ذلك ، بعد أن يحلل القضية ويناقشها ، وينتهى من هذا التحليل والمناقشة إلى صدقها أو خطأها . وقد إتبع كل من سقراط وديكارى هذا الشك المنهجي للوصول منه إلى الحقيقة .
- (٢) الشك الإنكارى : وفيه ينصب الشك – فقط – على المعتقدات التى يسلم بها الأفراد ، ويتضمن الإلحاد فى الدين .
- (٣) الشك المذهبي أو المطلق : وفيه يعتنق الإنسان منهاج الشك فى كل شئ ، بمعنى أنه لا يوجد صواب أو خطأ فى ذاته ، فما يبدو لى صوابا قد يكون خطأ بالنسبة لشخص آخر أو العكس ، وكلنا على صواب . والشك المذهبي هو الشك الذى قال به السوفسطائيين .

^{٤٣} وتضيف الأسطورة بأن كبير الآلهة زيوس (Zeus) قد عاقبه على هذه السرقة بأن قيده بالسلاسل وأرسل إليه نسرا أو عقابا ينهش كبده ، ولكن كان هذا الكبد يتجدد على نحو موصول ، وأخيرا أنقذه هرقل من هذا البلاء .

وزيوس هو كبير الآلهة فى الميثولوجيا اليونانية القديمة ، ويقابله جوبيتر فى الميثولوجيا الرومانية وكبير الآلهة فى الفكر الميثولوجى (أى الإسطورى) ليس هو " المحدث الأول أو الخالق الذى لا محدث قبله " ، بل هو الآخر مولود شاته فى هذا شأن المخلوقات الأخرى . حيث تقول الأسطورة

النار قد ساعدته على الحياة والسيطرة على طبيعتها إلا إنها لم تخرجه من حياة الوحشية لافتقاره إلى معرفة الفضيلة والكرامة والعدالة .

وقد وضع الفيلسوف الثانى — فى هذه الفلسفة — " جورجياس " كتابا عن اللاوجود ، تميزت فيه فلسفته بثلاث قضايا أساسية هى :

أولا : بأنه لا يوجد شئ .

ثانيا : بأنه إذا كان هناك شئ فالإنسان قاصر عن إدراكه .

ثالثا : إنه بافتراض وجود شئ ، وأن الإنسان قد أدركه ، فإنه لن يستطيع أن يبلغه لغيره من الناس .

[٢] الفلسفة السقراطية (Socratic Philosophy)

ومؤسسها سقراط : **Socrates** (٤٧٠ - ٣٩٩ ق.م) . وهو يعتبر أهم فلاسفة اليونان ، وأكثرهم إبداعا وتأثيرا ، ولا يعتقد أن هناك من له أثر على الفكر الفلسفى مثل سقراط . وتتميز فلسفته بأنها ميتافيزيقية ، وهى الفلسفة التى تبدأ بالذات والتجربة العقلية والاعتماد على البديهيات . بمعنى أنه فى بحثه عن الحقيقة رفض التفسيرات المادية السببية واتجه نحو التفسيرات العقلية . ففى فلسفته نجد سيطرة العقل على الحس ، والنفس على الجسد . ونقد السوفسطائيين واتجاهاتهم العملية ، وكون لنفسه منهاجا فكريا لتفسير الحقيقة ؛ وهى تدور حول حقيقة الإنسان والوصول إلى معرفته . وقد تركزت فلسفة سقراط حول ماهية الإنسان وفضائله ، وتهذيب الذات وتحريرها من عبودية الشهوات ، وبذلك يمكن أن تتحقق سعادة الإنسان . ولهذا يعتبر سقراط — فى نظر كثير من مؤرخى الفلسفة — مؤسس الفلسفة الأخلاقية ، أو علم الأخلاق . وكان يعتقد بأن هناك شريعة أخلاقية أبدية لا يمكن أن تقوم على دين ضعيف

السابقة ، بأن " زيوس " — كبير الآلهة — كانت أمه " ريبا " وأبوه " كرونوس " . وأن كرونوس أنجب من ريبا ، قبل ولادة زيوس ، كلا من : هستيا ، وديمتر ، وحييرا ، وحادس ، وبوسيدون ، وأنه ابتلع كلا من هؤلاء عقب ولادتهم بعد أن وقع فى وهمه ، إثر تحذير جاءه ، أن أحد أولاده سوف يخرج على طاعته ويخلعه . فما كان من ريبا إلا أن أخفت ولدها الجديد — زيوس — فى كهف بجزيرة كريت وقدمت إلى كرونوس بدلا منه قماطا يشتمل على حصة لبيبته . وهكذا نجا زيوس من الهلاك ونشأ فى كهفه ذاك بعد أن عنيت بتربيته بعض الحوريات . حتى إذا بلغ أشده أكره أباه على تقبيل أولاده ، وأعلن الحرب عليه وهزمه ، وبذلك أصبح كبير الآلهة . (وهنا نلاحظ أن الفكر الأسطورى لدى الإنسان لم يستطع أن ينفصل عن فكر الميلاذ للمجىء لهذا الوجود حتى بالنسبة لكبير الآلهة . لذلك لم يستطع — الإنسان — تخيل كبير الإلهة هو الإله الأول أو الموجد الأول للآخرين حيث لا يوجد له موجد آخر) .

(أسطوري) كالدين الذي أمنت به أثينا في ذلك الوقت . وكان يرى أن إدارة الدولة مسألة تحتاج إلى أفكار أعظم العقول وأحسنها ، إذ كيف يمكن أن إنقاذ مجتمع أو جعله قويا إلا إذا تولى أمر هذا المجتمع أحكم رجاله وأعقلهم .

وتعتبر السعادة في نظر سقراط الغاية العليا أو الهدف النهائي للأخلاق . والسعادة — من وجهة نظره — تقوم على سيطرة العقل على دوافع الشهوة ، ونوازع الهوى ، ورد الإنسان إلى حياة الاعتدال .

ويقول شيشرون ، لقد أنزل سقراط الفلسفة من السماء إلى الأرض . أي أنه حول التفكير من العالم وأصله إلى الإنسان وذاته . ووجه الإنسان إلى معرفة الحكمة والفضيلة والخلق إستادا إلى قوة العقل .

وكان سقراط يرى الإنسان عبارة عن روح وعقل يسيطر على الحس والتجربة . فالقوانين العادلة تصدر عن العقل ، وهي قوانين غير مكتوبة . وكان يعتقد أن الأطفال تولد بمعرفة متواحدة في أرواحهم (أي معرفة فطرية) غير أنهم لا يستطيعون إظهارها دون مساعدة . ولهذا إتبع طريقة الحوار الجدلي (وتعرف أيضا بالطريقة السقراطية المنهجية ، أو نظرية الأنامنيسس : *The Theory of Anamnesis*) ، لمساعدة محدثيه وتلاميذه لإكتشاف المعرفة العقلية في نفوسهم .

وقد اتبع سقراط الشك المنهجي^{٤٤} للوصول إلى الحقائق ، وقد تضمن منهاجه التهكم والتوليد^{٤٥} . وقد كرس سقراط فلسفته للبحث عن الخير والفضيلة ، وعرف الفضيلة بأنها

^{٤٤} أنظر تذييل رقم ٥٦ السابق .

^{٤٥} التهكم : هو جانب سلبي في الحوار ، بأن يتظاهر سقراط — أو المتحدث — بالجهل أمام محدثيه ويلقى عليهم أسئلة وكأنه يستفيد منهم ، ثم يستمر في الأسئلة ويجعلهم يستنبطون من أقوالهم نتائج — مترتبة — لا يوافقون عليها ، وعندئذ يعترفون بالجهل .

أما التوليد : فهو جانب إيجابي في الحوار ، فهو محاولة إستخراج الحقائق والمعاني من نفس محدثه بالأسئلة والإعراضات . وعندئذ يعتقد محدثه بأنه قد إكتشف الحقيقة بنفسه . ولذلك كان سقراط يقول أنه يحترف صناعة والدته (والتي كانت تعمل مولدة) إلا أنه كان يعتبر نفسه ، يولد الحقائق من محدثيه .

معرفة (Virtue is Knowledge) . وكان يؤكد على أن السعادة لا تكمن في إشباع الرغبات ، وإنما في القرب من الله (كما سبق وأن بين القرآن المجيد ذلك) . وقد أتهم^{٤٦} سقراط بأنه يفسد الشباب ، ويعتقد بآلهة بدل الآلهة المعروفة ، كما آمن بأن الموت لن يقضى عليه تماما . وأعدم بإجباره على تناول السم . وقال وهو في طريقه إلى الموت :

" أنا إلى الموت ، وأنتم لتستأنفوا الحياة الأفضل ، ولكن من منا لديه السعادة المقبلة ، فهذا أمر يبقى غير معروف لأي أحد غير الله " .

[٣] الفلسفة الأفلاطونية (Platonic Philosophy)

ومؤسسها أفلاطون : Plato (٤٢٧ ؟ - ٣٤٧ ق . م) أحد تلاميذ سقراط . وتعتبر الفلسفة الأفلاطونية تطلع إلى العالم الأفضل بنظرة روحية ، ولديها ثقة بمقدرة العقل الإنسانى للوصول إلى الحقيقة المطلقة (The Absolute Truth) . وقد ذهب أفلاطون إلى أن العالم الحقيقى ليس هو عالم المحسوسات أو عالم الإدراك الحسى ، إنما الحقيقة الواقعة فى ذاتها هى نظام فكرى فطرى كائن فى الإنسان . وقد تميزت المدرسة (أو الأكاديمية) الأفلاطونية بالتفكير الميتافيزيقى (أى العقلى) ، مع التركيز على الرياضيات والسياسة .

وقد رفض أفلاطون النظريات التى تقول بأن المعرفة هى معرفة الحواس . لأن معرفة الحواس هى معرفة ظنية وليست كاملة ، كما وأنها ليست معرفة حقيقية مطلقة . إنما المعرفة الحقيقية المطلقة يمكن أن نصل إليها من خلال التفكير الميتافيزيقى . أى أن العالم الحقيقى هو عالم الأفكار . وهذا هو الأساس الذى يقوم عليه " المذهب العقلى الميتافيزيقى " .

والنفس فى حقيقتها فكر ، والوجود الأرضى يفقدها صفاءها بسبب إتصالها بالجسم . وعلى هذا ؛ فإن واجب النفس يقتضيها أن تعمل جاهدة على التحرر من الحسيات حتى يعود إليها صفاؤها . وكلما إقتربت النفس من تحقيق هذا الهدف كلما كانت معرفتها للمبادئ الأولى أكثر وضوحا . وهذا التصور شبيهه بتصوير هيجل عن الحقيقة ذاتها . فالحقيقة عند هيجل فكرة تتطور بضرورة داخلية حتى تترك بوعى ذاتى .

^{٤٦} اتهمه ثلاثة أشخاص هم : أنيتوس (Anytos) وهو أحد السياسيين ، وليكون (Lycon) أحد الخطباء ، ومليتوس (Meletos) أحد الشعراء .

وقد تأثر أفلاطون بإعدام سقراط ، واعتقد أن الديمقراطية هي سبب هذا . ولذلك شك في صحة أوضاع مجتمعه ، ورسم لنا صورة للمجتمع المثالي كما يراه في جمهوريته (جمهورية أفلاطون) وهي تختلف عن المجتمع القديم ، في كثير من الجوانب .

ففي هذه الجمهورية ، تناول أفلاطون المجتمع كوحدة واحدة مبينا ما فيه من عيوب ، ثم وضع خطة شاملة لإصلاح الجوانب التعليمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ونقد الفن ودافع عن مكانة المرأة . كما طالب بأن يكون نظام الحكم في جمهوريته ديكتاتوريا (أى السلطة في يد الحاكم) . وكان يرى أن العدل هو تنسيق بين أفراد المجتمع ، أو هو إتفاق متبادل بين الفرد والمجتمع . وقد قسم أفلاطون المجتمع إلى ثلاث طبقات هي : الحكام ، والجنود ، والطبقة الإنتاجية . وذلك على أساس النجاح في المراحل التعليمية . ومن الناحية الاقتصادية حرم الملكية على الجنود والحكام . كما نادى بضرورة الرقابة على الفن ، حتى يكون في خدمة المجتمع . وطالب بالمساواة بين المرأة والرجل ، وقال بأن المرأة تستطيع الوصول إلى الحكم إذا اجتازت الإمتحانات . كما نادى بضرورة إصلاح الدين الإغريقي .

[٤] الفلسفة الأرسطوطاليسية (Aristotelian Philosophy)

وتنسب إلى مؤسسها أرسطو : Aristotle (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م) ، الذى يعتبر أعظم تلاميذ أفلاطون ، ولكن بينما كانت فلسفة أفلاطون تهتم بالتفكير الميتافيزيقى (أى التفكير العقلى) ، مع التركيز على الرياضيات والسياسة ، كانت فلسفة أرسطو تقول بالتفكير العلمى الذى كان يقول بأنه لا يوجد شيء فى العقل لم يكن قبلا فى الحواس . وكانت فلسفة أرسطو تهتم بالبيولوجيا والطبيعة ، ولهذا فهي تعتبر إلى درجة كبيرة فلسفة حسية ، وقد تأثرت بها فيما بعد " الفلسفة الحسية " الذى جاء بها جون لوك ، وباركلى ، وهيوم . وقد قسم أرسطو الفلسفة إلى علوم نظرية ، وعلوم عملية ، وعلوم شعرية .

فالعلوم النظرية تهدف إلى مجرد المعرفة وطلب الحقيقة لذاتها ؛ وتنقسم إلى ثلاثة أقسام : طبيعية : وتبحث فى الوجود من حيث هو متحرك وموجود . ورياضيات : وتبحث فى الوجود من حيث هو مقدار وعدد مجرد عن المادة . والهيئات : وتبحث فى الوجود من حيث هو وجود بالإطلاق . وكان أرسطو يطلق على مبحث الإلهيات " الفلسفة الأولى " ، تميزا لها عن فلسفة العلم الطبيعى التى كان يسميها " الفلسفة الثانية " .

أما العلوم العملية فقد قسمها أرسطو إلى : الأخلاق والسياسة وتدبير المنزل . والعلوم الشعرية فموضوعها الإنتاج الفني على إختلاف أنواعه . وقد ظل هذا التقسيم ساريا حتى بداية القرن السابع عشر ، عندما جاء فرنسيس بيكون بتقسيم مغاير كما سنرى .

وقد تميزت المعرفة الطبيعية عند أرسطو بالمعرفة الخارجية البسيطة للأشياء ، والتي تعتمد على الملاحظة المباشرة دون الذهاب إلى ماهية الحقائق . فقد كان يقول – على سبيل المثال – بأن شكل الجسم هو الذى يقرر : إذا كان الجسم يفرق أو يطفو ، إلى أن جاء بعد ذلك الرياضى والفيزيائى اليونانى أرشميدس : Archimedes (٢٨٧ ؟ - ٢١٢ ق.م) ، الذى اكتشف قانون الطفو بشكله الحالى وفيه يقرر أن طفو الأجسام يتوقف على وزن السائل الذى يزيحه الجزء المغمور من الجسم الطافى أو الجسم المغمور ، أى أن الطفو يتوقف على حجم الجسم المغمور وكثافة السائل .

٣ . ١ . ٣ . المرحلة الثالثة : مرحلة ما بعد سقراط (Post-socratic Era)

وقد عرفت مرحلة ما بعد سقراط بـ " الفلسفة الهلنستية : Hellenistic Philosophy " ، وقد جاءت هذه الفلسفة بفكر عملى يتناسب مع أوضاع اليونان السياسية والاجتماعية والتي كانت بحاجة إلى الإستقرار الفردي والجماعي ، عقب تفكك المدينة اليونانية بعد وفاة الإسكندر الأكبر عام ٣٢٣ ق . م .

وقد تميزت الفلسفة الهلنستية لا بتفكيرها الميتافيزيقى ، بل بتفكيرها العملى . فقد إتجه فلاسفتها إلى العمل على إمداد الفرد بـ " لائحة سلوك : Code of Conduct " ، تمكنه من إيجاد طريقة فى الحياة مبنية على الأخلاق والفضائل فى أعماله . ويمكن تقسيم الفلسفة الهلنستية إلى ثلاث فترات :

الفترة الأولى : وتمتد من نهاية القرن الرابع قبل الميلاد ، وحتى القرن الأول بعد الميلاد . وقد تميزت هذه الفترة بظهور " الفلسفة الرواقية : Stoicism " و " الفلسفة الأبيقورية : Epicureanism " . وقد تركزت هاتين الفلسفتين على السلوك والتصرفات الفردية والجماعية للحصول على السعادة المرجوة ، مع عدم تحديد منهج أو فكر فلسفى خاص بهما .

أما الفترة الثانية : فهي تمتد من القرن الأول بعد الميلاد إلى منتصف القرن الثالث ، وتميزت بظهور " الفلسفة الشككية : Skepticism " التي إهتمت بنقد التفكيرين العقلي (الميتافيزيقي) والعلمي من حيث مقدرتهما على الوصول إلى المعرفة اليقينية .

أما الفترة الثالثة : وهي الفترة التي تمتد من منتصف القرن الثالث بعد الميلاد ، وحتى منتصف القرن السادس أو السابع ، وتسمى بالمرحلة " الأفلاطونية الجديدة أو المحدثة : Neo-Platonism " ، وتمثل المرحلة الأخيرة من الفلسفة اليونانية القديمة . وقد تميزت هذه الفلسفة بمحاولة الجمع بين الأفلاطونية والأرسطوطاليسية ، أى الجمع بين التفكير الميتافيزيقي (أى أن العقل أصل المعرفة) وبين التفكير العلمي (أى أن الحواس والتجربة هما أصل المعرفة) ، وكان لهذه الفلسفة تأثيرا كبيرا فيما بعد على الفكر الأوربي . وسنقوم بإعطاء ملخص سريع عن كل مرحلة وأهم فلاسفتها فيما يلي .

[١] الفترة الأولى : الفلسفة الرواقية والفلسفة الأبيقورية :

• الفلسفة الرواقية (Stoicism) :

يعتبر زينو : Zeno (٣٤٠ - ٢٦٥ ق . م) المؤسس الأول للفلسفة الرواقية ، ثم خلفه كريسيبوس : Chrysippus ، الذى أعتبر المؤسس الثانى لهذه الفلسفة لقيامه بتنظيم مبادئها . وقد ركز الرواقيون على فلسفة الأخلاق ، وقد تأثروا فى ذلك إلى حد بعيد بالمدرسة الكلبية (Dog-men) . والكلبية تعتبر مدرسة أكثر منها فلسفة ، حيث تركز تعاليمها على الحياة الفاضلة ، وأن سعادة الإنسان الحقيقية تكمن فى السلوك الصحيح ، وذلك عن طريق سيطرة الإنسان على رغبته وشهوته من خلال إتباع قانون الطبيعة (Law of Nature) . والحياة عند الكلبيين ، وفقا لقانون الطبيعة ، تتميز بالتقشف كالمشى حفاة الأقدام ، وتغطية أجسادهم بقطعة خشنة ، وكان مآكلهم عدسا ، ومشربهم ماء . وقد اعتبر الكلبيون الفضيلة هدفا لهم ، فتبنوا أسلوب الوعظ والخطابة فى الأماكن العامة ، يوعظون به الناس . ومن ثم جاء اسمهم الكلبيون (Dog-men) ، لأن الكلب عند اليونانيين آنذاك كان تعبيراً عن عدم الخجل .

وقد اعتبر الرواقيين أن الفضيلة هي الشيء الهام كالكلبيين ، إلا أنهم اختلفوا عنهم فى طريقة تحقيقها . فليس بالتقشف يمكن تحقيق الفضيلة ، بل يمكن تحقيقها بما يتناسب وحياة بسيطة لا مترفة . وقد أخذ الرواقيون بعض مبادئهم من الأفلاطونية والأرسطوطاليسية ، من حيث أن

المعرفة نوعان ، روحية ومادية . وإعتقدوا – مثل هيرقليطس – بأن النار هي مادة كل شيء . كما قال الرواقيين بمذهب وحدة الوجود ، فقد إعتبروا أن المادة والحياة والروح مجرد جوانب مختلفة للحقيقة التي هي في نهاية الأمر غير معروفة .. وهي الله . وقد قال بنفس المذهب فيما بعد كل من أفلوطين وإسبينوزا وهيغل .

• الفلسفة الأبيقورية (Epicureanism) :

ومؤسس هذه الفلسفة هو أبيقور : Epicurus (٣٤١ - ٢٧٠ ق.م) . ويمكن أن ينظر إلى هذه الفلسفة على أنها نظام عملي (Practical System) ، يهدف إلى فلسفة أخلاقية لتحقيق حياة إنسانية سعيدة . وقد ركز أبيقور على إرادة الإنسان ، حيث لا توجد أي قوة خارجية تعلق على الإرادة . ومثل الكلبية ترى الأبيقورية أن المتعة - العقلية - غاية الحياة ، وفي المتعة توجد السعادة . وتعتبر الأبيقورية تعبير سام عن الرغبة لنوع سام من السعادة عن طريق المتعة العقلية التي تستطيع السيطرة على الماديات . ويرى أبيقور أن المتع العقلية هي أسمى أنواع المتع ، فهي أسمى وأعلى من متع الجسد لأن الجسد يعيش الحاضر ، بينما العقل يرجع إلى الماضي وينظر إلى المستقبل ، وأنه بهذا الشعور يستطيع أن يقضى على حالة الضيق (Distress) من أسمى وألم . ويقول أبيقور أن المعرفة الحسية هي معرفة مطلقة ، وهي معيار الحقيقة دائما ، وكل إحساس يعتبر صادقا ولا يمكن الشك فيه . أما الصواب والخطأ فإنه يرجع إلى حكمنا العقلي .

وقد قال الأبيقوريون بقاء النفس التي هي بنية من الذرات تتحل مع انحلال الجسد ، وأنكروا أن الآلهة تعاقب الشرير وتكافئ المستقيم ، لكنهم يجمعون أن الآلهة موجودة ، ولكنها لا تهتم بشئون البشر .

[٢] الفترة الثانية : الفلسفة الشككية (Skepticism)

بدأت الفلسفة الشككية بالمدرسة البيرونية ، ومؤسسها بيرون : Phyrhon (٣٦٠ - ٢٧٠ ق.م) ، ويقال أنه رافق الأسكندر الأكبر في مسيرته إلى الهند . وقال بيرون بأن نفس الأشياء تظهر مختلفة بالنسبة للأفراد المختلفة ، ويتوقف ذلك على الحالة النفسية والصحية للفرد (المريض لا يشعر بالمذاق) . كما وإن الأحكام تختلف باختلاف العادات والتقاليد والقيم في المجتمعات . وبالتالي فكيف لنا أن نعرف اليقين ؟ وهكذا ليس بالإمكان التأكد من شيء . ولذلك أخذ بيرون بمبدأ تعليق الحكم (Suspension of Judgement) . كما ينبغي على

الحكيم ألا يقول " هذا كذلك " ولكنه يقول " هذا يبدو لي " أو " ربما يكون هذا كذلك " . وقد بحث بيرون مثل معاصريه عن طمأنينة النفس ، ووجدوها وأتباعه في تعليق الحكم ، لأن في فلسفتهم أن جميع الأشياء غير ثابتة وغير يقينية .

وكان هناك أيضا المدرسة الأكاديمية الجديدة (The new Academy) التي أخذت الشك كمنهج فلسفي لها . ومن أهم فلاسفتها أرفازيلاس : Arcesilaus (٣١٥ - ٢٤١ ق. م) الذي عرف عنه أنه لاشيء في المحسوسات أو المرئيات يضمن لنا صدق الأشياء ، وبالتالي لا يمكن لنا التأكد من العالم المحيط . ثم جاء بعده كارنيادس : Cardneades (٢١٥ - ١٢٥ ق. م) الذي أكد بأن المعرفة اليقينية مستحيلة لأنه ليس هناك مقياس لها .

وقد استمر تأثير الفلسفة الشكية في الفلسفة اليونانية حتى القرن الثالث بعد الميلاد . وظهر هذا التأثير واضحا في فلسفة أوغسطين .

[٣] الفترة الثالثة : الفلسفة الأفلاطونية الجديدة (Neo - Platonism)

وهي تمثل الفترة الثالثة والأخيرة من الفلسفة اليونانية القديمة . وتمتد هذه الفلسفة من منتصف القرن الثالث وحتى منتصف القرن السادس بعد الميلاد . وتتسبب هذا الفلسفة إلى أفلوطين : Plotinus (٢٠٥ - ٢٧٠) ، وكان مصريا (من أسبوط) يتكلم اليونانية ، ثم رحل إلى روما وأسس مدرسته عام ٢٤٤ . ويعتبر أفلوطين بلا منازع أعظم وأهم فلاسفة الأفلاطونية الجديدة ، وأكثرهم تأثيرا . وأعماله الفلسفية هي " التساعيات " وهي المعروفة بإسم " الإنيدز : Enneads " . وقد تأثر الفكر الأوربي بفلسفة أفلوطين من خلال تأثيره على فلسفة أوغسطين فيما بعد .

وقد عرف أفلوطين أن هناك حقيقتين : حقيقة العالم المرئي (Visible Universe) وحقيقة العالم المثالي (Ideal Universe) ، وفوقهما المبدأ الأول (The First Principle) أو الواحد (The One) أو الجيد (The Good) ، وأحيانا يسميه الأب (The Father) ، متأثرا في هذا بالفكر المسيحي . وهذا المبدأ الأول أو الواحد يقع على قمة النظام في فلسفة أفلوطين ، وهو أبعد من إدراك العقل أو الحس ، وهو ليس الوجود بل ما فوق الوجود ، وإنه غير متناه وغير محدود ، وهو مصدر الحقيقتين المرئية والروحانية ، والتفكيرين المادى والعقلى . وهنا نرى الخلاف بين فلسفة أفلاطون وأفلوطين . فقد وقف أفلاطون عند العالم

المثالي وقال بأنه هو أعلى حقيقة ، بينما أفلوطين تعدى هذا (العالم المثالي) إلى المبدأ الأول أو الواحد وأنه هو مصدر الحقيقة .

ويشير أفلوطين إلى الحقيقة بأنها ذات مستويين : المستوى الأول : ويطلق عليه المستوى الروحي (Spiritual) وهو يمثل العقل الإلهي (The Divine Mind) أو الجانب الأعلى من الحقيقة . والمستوى الثاني : ويطلق عليه المستوى المادي (Cosmic) ، وهو يمثل صورة الحقيقة (The Real Form of Reality) ويعبر عن العالم المرئي (The visible Universe) .

وهذان المستويان يمثلان الجانبين الرئيسيين للحقيقة ، ولكل مستوى الخصائص والقيم المختلفة التي يتميز بها ، الأمر الذي يجعل ضرورة إعتبارهما جانبيين للحقيقة المتكاملة . وهذا يعني أن تفكير أفلوطين كان متجها نحو إعتبار وجود العالم الروحي بجانب العالم المادي .

٢.٣ . فلسفة العصور الوسطى (Medieval Philosophy)

بدأت الفلسفة المسيحية في الظهور في العصر الوسيط منذ حوالي القرن الخامس الميلادي . وظلت قائمة حتى منتصف القرن الخامس عشر تقريبا . وكانت السيادة في تلك الفترة لتعاليم الكنيسة ، ولهذا كان دور الفلسفة هو دور الخادم للتأسيس العلمي للعقيدة والدفاع عنها . لذا جاءت هذه الفلسفة في جوهرها إمتدادا لفلسفة أفلاطون وأرسطو اليونانية القديمة ، ولكن في ثوب ديني مسيحي . فالتفكير الفلسفي في العصور الوسطى تميز بأنه تفكير ميتافيزيقي تغلب عليه النزعة الدينية ، متبعا في ذلك المنهج الإستنباطي (Inductive Method) الذي يبدأ بالطريقة القبلية (A Prior Method) ، والتي تهدف إلى ملاءمة الحقائق (Facts) بالنظرية (Theory) . أو بمعنى آخر ، ضبط الحقائق على الفكر الديني أو القيام بالتبرير ، كما سبق وأن بينا هذا في الفصلين الثاني والثالث .

كما ظهرت في نفس الوقت الفلسفة الإسلامية ، حين شرع المسلمون في بناء حضارتهم الجديدة اعتبارا من القرن السابع وامتدت حتى القرن الثاني عشر الميلادي . وقد اتسمت هذه الفلسفة بأنها ذات طابع ديني إسلامي ، وأهم فلاسفتها : الكندي ، والفارابي ، وابن سينا ، والغزالي ، وابن رشد . ولن أناقش هنا الفلسفة الإسلامية لأن الغرب عادة ما ينكر دورها عليهم من جانب ، كما وإنه يصير دائما ويؤكد على تأثير هذه الفلسفة — الإسلامية — بالفلسفة اليونانية القديمة والأفلاطونية المحدثة أو الجديدة من جانب آخر .

ولم يتنبه الغرب إلى أن الفلسفة الإسلامية لم يتجاوز معناها أكثر من : تاويل .. أو تفسير .. أو شرح .. بعض من آيات القرآن المجيد ، بالقدر الذى أدركه أو فهمه الفيلسوف من خلال ثقافته وقدراته الخاصة ، وكذا من خلال الخلفية العلمية لثقافة عصره فى ذلك الوقت . أو بمعنى آخر فإن الفلسفة الإسلامية : هى رؤية جزئية من محيط هائل من المعرفة المطلقة لما ورد ذكره فى القرآن المجيد ، استطاع الفيلسوف الإسلامى مشاهدتها من خلال فكره وتجربته الخاصة مع هذا الكتاب (أى القرآن المجيد)^{٤٧} ، وهذه الرؤية تعكس ثقافته وثقافة عصره كما سبق وأن بينا هذا ببعض الأمثلة المذكورة هنا .

كما لم يتنبه الغرب أيضا ، إلى أن فلسفاته السابقة – بصفة عامة – لم تتجاوز فى معناها عن مس – ومن بعيد – لبعض الحقائق التى ورد ذكرها فى القرآن المجيد (على النحو السابق الإشارة إليه بإيجاز شديد فى هذا الفصل)^{٤٨} ولهذا قدر لهذه الفلسفات البقاء لما فيها من قدر معقول من بعض الحقيقة والتى تتمثل فى علوم الفطرة لدى الإنسان . ولهذا سنكتفى هنا بمناقشة فلسفة العصور الوسطى الأوربية فقط ، والتى تشمل الفلسفات التالية : الفلسفة الأوغسطينية ، والفلسفة الأكوينية .

١ . ٢ . ٣ . الفلسفة الأوغسطينية (Augustinian Philosophy) :

وتنسب هذا الفلسفة إلى القديس أوغسطين : St. Augustin (٣٥٤ – ٤٣٠) ، الذى ولد فى تجاست : Thagast (حاليا سوق أهراس بشرق الجزائر بالقرب من الحدود التونسية) ، عام ٣٥٤ م . قبل مجيء الإسلام ، من القديسة " مونيكا " ، ثم إنتقل فيما بعد إلى ميلانو بروما . وهو يعتبر من أعظم علماء الدين المسيحى الذين أنجبهم الغرب .

^{٤٧} كما أود أن أضيف – هنا – إلى أن كبار الفلاسفة المسلمين قد خاضوا غمار الفلسفات الأجنبية بين يونانية وهندية وفارسية وعرضوا لكل مشكلة من مشاكل العقل والإيمان فيها ، وتكلموا عن وجود الله ووجود العالم ووجود النفس ، وخرجوا من سبحاتهم الطويلة فى هذه الفلسفات فلاسفة مسلمين دون أن يعتنوا أذهانهم فى التاويل والتخريج . ومنهم كذلك ؛ من ترجم أرسطو وأفلاطون إلى الإسلام ولم يعسر عليهم أن يذهبوا معهما إلى أقصى مدى فى رأى العقل دون أن يخرجهم هذا من حظيرة الدين الإسلامى .

^{٤٨} وهذا ما دفع بالفيلسوف العربى الأندلسى " ابن رشد " (١١٢٦ – ١١٩٨) إلى القول بأن " أرسطو " ، كان حنيفا مسلما . بل وذهب ابن رشد إلى أبعد من هذا عندما أخذ فى تنقية فكر أرسطو من كل ما يخالف العقيدة الإسلامية . ويعرف ابن رشد فى الغرب بإسم : " Averroës " ، وهو الذى حاول التوفيق بين الشريعة الإسلامية والفلسفة اليونانية .

وقبل أن يتجه أوغسطين إلى الدين ، كان فاسقا ومشهورا بحبه للعنف وللنساء . فلما إتخذ اتجاهه الجديد لم ينس ماضيه بل تأثر به إلى الحد أنه أصبح له مقاييس متشددة في مجال الجنس . ووصل به الأمر إلى ربط الجنس بالذنب حتى من خلال الزواج . وكان إرتفاع شأن العزوبة عند القديس أوغسطين هو منشأ فكرة عزوبة رجال الدين فيما بعد ، والتي قد نشأت كشيء مستحب وانتهت كواجب ملزم لكبارهم ^{٤٩} .

وقد اهتم أوغسطين في بداية حياته بدراسة اللاهوت والمسيحية ، قبل أن يبدأ معرفته بالفلسفة . وقد أعجب أوغسطين بأفكار أفلوطين لما وجد فيها من تشابه بين تعاليمه ، وبين ما جاءت به الأنجيل من تعاليم كالتوافق بأن الله روح لا مادة ، وأن العقل الإلهي مطلق . واعتقد أوغسطين في أن المعرفة لا تبحث لأسباب أكاديمية بل تبحث لتحقيق السعادة . وأن الإنسان الحكيم هو فقط الذى يستطيع أن يكون سعيدا ، والحكمة تتمثل فى البحث عن المعرفة ، والسعادة توجد فى البحث عن الحقيقة . ويعتبر أوغسطين أن المعرفة العقلية تأتي فوق المعرفة الحسية . ويبين لنا أوغسطين أن المعرفة التى تأتي لعقولنا ليست من عمل عقولنا ، بل هى من عمل الموجود الذى هو وحده قادر وأبدي وغير متغير ، وهو الله .

واقترح أوغسطين " نظرية الإنارة : The Theory of Illumination " ، والتي تقول بأننا لا نستطيع أدراك حقيقة الأشياء ما لم تأت لنا من الله . فالله خلق العقل ، والعقل يستنير بالله ليدرك الحقيقة ، فالمعرفة لديه هى معرفة روحية وليست معرفة مادية للعقل .

والزمن فى فلسفة أوغسطين ظاهرة ذهنية هامة تمتد فى الروح . فالماضى ذكرى (Memory) ، والحاضر انتباه (Attention) والمستقبل توقعات (Expectations) ، ويتلاشى الحاضر فى الماضى . ولا يعتقد أوغسطين بأن العالم خلق فى موعد ولكنه خلق مع الزمن . وعندما سئل أوغسطين ماذا كان يفعل الله قبل خلق العالم ؟ كان يجيب بأن حياة الله أزلية وليس هناك شئ اسمه قبلا .

^{٤٩} - التاريخ الأسود للكنيسة * القس دى روزا ، الدار المصرية للنشر والتوزيع . ص : ١٩٩ / ٢٠١ .

٣.٢.٢ . الفلسفة الأكوينية (Aquinian Philosophy)

وتنسب هذا الفلسفة إلى القديس توما الأكويني : Thomas Aquinas (١٢٢٥ - ١٢٧٤) ، الذي ولد في روكاسيكا (Rocasecca) بالقرب نابولي بإيطاليا . ودرس اللاهوت وتلمذ على يد القديس ألبرت الكبير وتأثر بفلسفته .

وفلسفة توما الأكويني هي فلسفة تلاؤم بين الفلسفة اليونانية والمسيحية من جهة ، والفلسفة الأفلاطونية والأرسطوطاليسية من جهة أخرى . ولكنه يعلو بفكر أرسطو على فكر أفلاطون ، أى يعلو بالفكر العلمي على الفكر الميتافيزيقي . ولهذا نجد توما يقبل بمبدأ المعرفة بطريق الحس والمنطق دون مساعدة الروح ، وهذا الإتجاه يعنى لديه أن التفكير العلمي يبقى مميّزا في فلسفته الأكوينية . ويقول بأن الفيلسوف يجادل بأن الله هو الخالق ، فمعرفة الفيلسوف بالله تأتي نتيجة جدل عقلي منطقي ، في حين معرفة اللاهوتي عبارة عن وجود الله كحقيقة لا فرض يدعو للجدال . ويعتقد الأكويني بأن ليس بوسع الفرد أن يعرف نفس الحقائق علميا ، ويعرفها في نفس الوقت ويصدقها بالإيمان . فمن وجهة النظر هذه ، يجب الفصل بين القضايا الإيمانية ، والحقائق العلمية (لاحظ هنا استحالة الجمع بين العلم والعقيدة المسيحية) .

وهذه الثنائية الحادة بين العلوم الطبيعية والوحي الإلهي قال بها ، فيما بعد ، " بيكون " بمنتهى الوضوح ، كما سبق وأن أوضحنا هذا . فالعلم والدين في الفكر المسيحي لا يجتمعان تحت أى تصور ، لذا كان يلزم الفصل دائما بينهما ، حتى يمكن الإحتفاظ بالدين . ولهذا كان يقول بيكون بأن الفيلسوف الذى ينغمس في اللاهوت (أى في الفكر الديني) يخلق مذهبا خرافيا جامحا ، على حين أن اللاهوتي (أى رجل الدين) الذى يهتم اهتماما مغاليا بالفروق الفلسفية والكشوف العلمية ينتهى إلى الكفر والزندقة .

٣.٣ . فلسفة عصر النهضة (Renaissance Philosophy)

ويشير هذا المصطلح إلى حركة الفكر العلمية والثقافية (أى الأخلاقية والدينية) ، التى بدأت في إيطاليا في القرن الرابع عشر وانتشرت في جميع أنحاء أوروبا حتى القرن السادس عشر . وأهم ما يميز فلسفة عصر النهضة يرجع إلى الإكتشافات العلمية في تلك الفترة . ومفهوم العلم عند علماء النهضة له وجهان ، علم نظري (Theoretical) ويمثل المحاولة لفهم العالم ؛ وعلم عملي أو تطبيقي (Practical) وهو يمثل المحاولة لتغيير العالم . وقد لاقت النظريات العلمية الجديدة في تلك الفترة مقاومة شديدة من جانب الكنيسة . فعندما جاء

كوبرنيكوس : Copernicus (١٤٧٣ - ١٥٤٣) الفلكي البولندي ، بنظريته العلمية التي تقول بأن الشمس هي مركز العالم ، وأن الأرض هي التي تدور حولها ، رفض اللاهوتيون هذه النظرية وقاوموها بعنف . وعندما جاء جاليليو : Galileo (١٥٦٤ - ١٦٤٢) عالم الفلك الإيطالي ، ومكتشف الطريقة التجريبية (Experimental Method) ، بالبرهنة العملية على نظرية كوبرنيكوس باستخدام تليسكوبه ، حكمت عليه الكنيسة بالسجن ، ومات كفيفاً في السجن غير مسموح له بالاتصال بأحد ، وبمصادرة كتبه (راجع الفصل الأول ؛ بند ٨) .

وقد أدى تقدم العلوم في عصر النهضة إلى ظهور المنهج الاستقرائي^{٥٠} ، كما أدى تقدم الرياضيات إلى ظهور المنهج الاستنباطي^{٥١} ، وقد أدى هذا إلى فتح آفاق جديدة للمعرفة ، أدت إلى التمييز بين سلطة العلم وسلطة الكنيسة ، أي المعرفة العلمية والمعرفة اللاهوتية .

^{٥٠} المنهج العلمي أو المنهج التجريبي أو المنهج الاستقرائي (The Scientific or The Empirical or The Inductive Method) هو منهج البحث في العلوم الطبيعية . وخطوات هذا المنهج (الاستقرائي) هي كالآتي : (١) ملاحظة الظاهرة وجمع المعلومات عنها . (٢) وضع المسئلة أو الفرض أو الفروض الأساسية واللازمة لوصف الظاهرة . (٣) التجربة أو التجارب المختلفة التي تمثل الإختبار النقدي للفروض الموضوعة وكذا التأكد من صحتها . (٤) القانون ، أي الخروج بالقانون العام أي العلاقة الثابتة التي تخضع لها الظاهرة والذي يمكن استخدامه - فيما بعد - في تطبيقات أخرى . والخطوات المذكورة عن هذا المنهج لم تكن معروفة وقت بيكون ، كما وإن بيكون نفسه لم يكن يعرف إلا جزئيات منها فقط ، وقد أكمل هذه الخطوات الفلاسفة من بعده أمثال : مل ، وسميث .

^{٥١} تعتمد الرياضيات على " المنهج الاستنباطي : The deductive Method " : (أو الاستنباط العقلي) ؛ وهو المنهج الذي يستخلص النتائج من المقدمات بالعقل . وفيه يعتمد الباحث على التحليل العقلي والمنطقي للوصول إلى النظرية المطلوبة مبتدءاً بالتعريفات والبيدهيات والمسلّمات الأولى التي يمكن أن يستخلص منها النظرية .

وأشير هنا إلى أنه ليس هناك معنى لهذه التفرقة بين المنهجين وهذا التخصيص ، أي المنهج الاستقرائي للتجربة الفيزيائية ، والمنهج الاستنباطي للرياضة . ففي الواقع ، كلا المنهجين أساسيين وضروريين ، بل ولازمين ولا غنى عنهما في مجال الفيزياء العامة (أي في مجال التجربة والنظرية والتعميم ، وهو ما يعرف أيضاً باسم : الرياضيات التطبيقية : Applied Mathematics) . فعلى سبيل المثال ، نجد أن النظرية النسبية الخاصة قد بنيت على مسلمتين أساسيتين ، سبق الإشارة إليهما في مقدمة هذا الكتاب - وأستنبط منهما ، بطرق رياضية بحتة " تحويلات لورانتز : Lorentz Transformation " التي تعتبر الأساس النظري لجميع النتائج العملية التي تنبأت بها هذه النظرية ، ومنها قانون (الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء) ، ومنها كذلك قانوني تغير كتلة الجسم مع حركته ، وكذا اعتماد طول الفترة الزمنية على حركة النظام .. إلى آخره .. من كثير من النتائج التي ثبت صدقها بالتجربة العملية . وجميع هذه التنبؤات الفيزيائية قد جاءت بطرق استنباطية أي رياضية بحتة ، وليست بطرق إستقرائية ؛ على الرغم من أنها تقع جميعها داخل المنطقة أو المساحة الفيزيائية للعالم المشهود ، وبذلك تم التثبت من صدقها فيما بعد .

بمعنى التمييز بين المعرفة التي تأتي من التعاليم الدينية أو الوحي الإلهي (Divine Revelation) كما جاءت به الديانة المسيحية ، وبين المعرفة التي تأتي من المقدرة الفكرية أو الفكر الإنساني (The Human Reason) استنادا إلى فلسفة أرسطو وفكره التجريبي . وقد تمخض هذا الوضع عن نتائج عممت آثارها ، وما زلنا نعاني منها إلى الآن ، وهذه النتائج هي :

(١) إما أن يقبل الإنسان بتفوق فكره على الفكر الإلهي الخالق ، أو أن يقوم الإنسان بالتخلص من الفكر الديني على نحو مطلق . وما يترتب على هذا من إنكار لوجود الخالق ، أو على الأقل استبعاد " الفكر الإلهي " من قضية الوجود والمصير ، وما يتبع هذا من القول ببعيثة الوجود كما قالت به الفلسفة الوجودية . وهنا لم يتبق للإنسان للبحث عن الله إلا الاعتماد على فكره وذاته ، على النحو السابق ذكره .

؛ أو

(٢) أن يقوم الإنسان بمحاولة الجمع بين المتناقضات ، أي الجمع بين الفكر الديني الأسطوري من جانب ، وبين العلم التجريبي غير القابل للشك من جانب آخر ، وما يترتب على ذلك من إلغاء عقل الإنسان في القضايا الدينية على نحو مطلق ، وظهور " ظاهرة التبرير " أو المرض النفسي الذي يقول به علماء النفس ، على النحو السابق مناقشته في الفصل الثاني .

؛ أو

(٣) أن يقوم الإنسان بالفصل التام بين الدين والعلم ، واعتبار أنهما قضيتان مختلفتان ومستقلتان تماما كل منهما عن الأخرى ، حتى وإن جاء الدين بعكس ما يجيء به العلم . فيكفي — في هذه الحالة — إلغاء العقل والقول باستقلالية القضيتين !!..

وأهم فلاسفة هذا العصر ، أي عصر النهضة هم : فرنسيس بيكون ، ونيقولا ماكافيللي ، وتوماس هوبس . وسنعرض لفلسفاتهم في إيجاز شديد .

فرنسيس بيكون : Francis Bacon (١٥٦١ - ١٦٢٦) ، رأى أن الأمل الوحيد للمعرفة هو عن طريق المنهج العلمي أو التجريبي (أي المنهج الإستقرائي : Inductive Method)^{٥٢} ، واستخف بالمنهج الرياضي (أي المنهج الإستنباطي : Deductive Method)^{٥٣} . وهذا يعني إنه قد ركز على العلوم والطبيعات وأهمل الرياضيات . وقد تخطى بيكون

^{٥٢} انظر تذييل رقم (٥٠) السابق .

^{٥٣} وفي هذا المنهج يتم استخلاص النتائج من المقدمات بالعقل (انظر تذييل رقم ٥١ السابق) .

التقسيم الأرسطي للفلسفة ، واعتمد تصنيفا آخر يعتمد على القوى العقلية المدركة ، وقرر أن البحث السيكولوجي يجب أن يكون أساسا لكل فلسفة وكل علم . وقد حصر بيكون القوى العقلية في ثلاثة أمور هي :

(١) الذاكرة : وبها نحصل على معرفة التاريخ . (٢) الخيال (أو المتخيلة) : وبه نحصل على معرفة الشعر ، وأخيرا (٣) القوى العقلية المفكرة : وبها نحصل على الفلسفة . وتنقسم الفلسفة - هي الأخرى - إلى ثلاثة أقسام هي الفلسفة الإلهية (وتعنى بدراسة الدين وما يحويه) ، والفلسفة الطبيعية ، وتعنى بدراسة الأشياء المادية ثم الميكانيكا ثم السحر (لاحظ إدراج السحر ضمن الفلسفة الطبيعية) ، ثم أخيرا الفلسفة الإنسانية (وتعنى بدراسة جسم الإنسان والفسولوجيا والتشريح ، وعلم النفس ، والعلاقات السياسية والاجتماعية) .

نيقولا ماكيافيللي : Nicola Machiavelli (١٤٦٩ - ١٥٢٧) ، وكانت فلسفته واضحة في كتابه " الأمير " وتتميز بأنها فلسفة سياسية وعلمية تطبيقية . وقد نشر هذا الكتاب الذى تعتمد عليه شهرة ماكيافيللي السيئة في عام ١٥٣٢ م ، أى بعد وفاته بخمسة أعوام . وفلسفة ماكيافيللي هذه مبنية على تجربته الخاصة لاختراع الوسيلة (means) لتبرير الغاية (end) ، أو أن الغاية تبرر الوسيلة . وكان يرى أن الحياة السياسية نضال (Struggle) ، وأن الفضائل تعرض السياسة للخطر ، وكان يرى أن الخداع والنفاق وشهادة الزور ضرورية ومغتفرة من أجل الاحتفاظ بالقوة السياسية . وأن الحاكم يمحى إذا كان دائما فاضلا . ولا بأس من استعمال الإرهاب في وحشية لاستمرار من دحرم الحاكم . كما ينبغي للحاكم أن يقبض بظغيان على البلاد التى دحرها . ولهذا ظلت الميكافيلية عالقة في ذهن العالم لمدة تزيد على الأربع قرون على إنها شئ مرادف لعمل شيطاني وخائن ونذل وقاس وخبيث ، وقد قال البعض إن كتاب " الأمير " ضرورى للطغاة ٥٤ .

ثم نأتى إلى توماس هوبز : Thomas Hobbes (١٥٨٨ - ١٦٧٩) ، ونال شهرته من تأليفه لكتاب " اللوتيان : Leviathan " ، وقد قوبل هذا الكتاب بالنقد الشديد من قبل الكنيسة ، كما اتهمته الكنيسة بالإلحاد . وقد تأثر هوبز بجاليليو ، ولهذا نراه يؤكد على الجانب العملي فى الفلسفة وأن وظيفة الفلسفة هو المساهمة فى ثراء الإنسان المادي . فالفلسفة لديه تبدأ من العالم التجريبي لتنتهى بالنتائج . فالمعرفة الفلسفية لديه هي معرفة النتائج

٥٤ * كتب غيرت وجه العالم " روبرت ب. داونز ؛ ترجمة أمين سلامة . الهيئة المصرية العامة للكتاب . ص : ٤٧/٣١ .

(Cosequences) . أو بمعنى آخر ، أن فلسفته هي فلسفة منهجية (Methodological) ، تبدأ باستخدام المنهج الاستقرائي من فروض مستمدة من العالم المادي (من ملاحظة وتجربة وتدوين) ، وتنتهي باستنباط أو باستنتاج النتائج النهائية التي تسمح بالتطبيق أو التعميم . وبديهي أن فلسفة بهذا الفكر لم تتجاوز في معناها عن أسلوب تناول بحث الظواهر الطبيعية المختلفة ، والتي يمكن الانتهاء منها بقوانين عامة تسمح بتطبيقها أو استخدامها في مجالات أخرى لنفس الظاهرة ، ولكن بتباينات أو ظهورات مختلفة . وبديهي أن فلسفة كهذه لا يمكن أن تقود إلى أي فكر يذكر عن الإنسان أو عن الله ، أو عن الدين ، لهذا نرى هوبز يقول :

" أن الدين ليس أمرا من أمور الفكر ، وإنما هو أمر من أمور الاعتقاد ، ولا يجوز الخلط بين العقيدة والعقل . فحيث ينتهي العقل تبدأ العقيدة ، وحيث ينتهي العلم يبدأ الإيمان " .

وهذا يعني أن العقيدة لا عقل لها والإيمان لا علم فيه !!.. وبديهي هذا هو حلال تجربته مع الفكر المسيحي .

٣ . ٤ . الفلسفة الحديثة (Modern Philosophy)

بدأت الفلسفة الحديثة تظهر في أوروبا والعالم الغربي منذ منتصف القرن الخامس عشر الميلادي تقريبا ، وذلك مع بداية النهضة الأوروبية ، وحتى نهاية القرن التاسع عشر . وقد أخذت الفلسفة في العصور الحديثة صورتين أساسيتين هما : " الفلسفة العقلية : Rationalism " المبنية على العقل وتعكس صور التفكير الميتافيزيقي . أما الصورة الأخرى فهي " الفلسفة الحسية : Empericism " المبنية على الحس وتعكس صور التفكير العلمي .

وتشمل الفلسفة الحديثة " ستة فلسفات " هي : (١) الفلسفة العقلية ، (٢) الفلسفة الحسية ، (٣) فلسفة التنوير (وتنقسم إلى الفلسفة الرومانسية ، والفلسفة النفعية) ، (٤) الفلسفة الكانطية ، (٥) الفلسفة المثالية ، (٦) الفلسفة المادية . وجميع هذه الفلسفات تدور في فلك تحديد نظرية المعرفة (Epistemology) أو (Theory of Knowledge) عند الإنسان ، وهل أصلها عقلي (أي التفكير الميتافيزيقي) ، أم أن أصلها حسي (أي التفكير العلمي) ، أم أن أصلها مشترك بين العقل والحس . وسنأتي إلى شرح موجز لهذه الفلسفات وأهم فلاسفتها فيما يلي .

٣. ٤. ١. الفلسفة العقلية (Rationalism) :

والفلسفة العقلية أو المذهب العقلي (Rationalism) هي الفلسفة أو المذهب الذي يقول بأن المعرفة مصدرها العقل لا الحس . وتعتبر هذه المعرفة معرفة " قبليّة : A priori " ، أي معرفة فطرية لا مكتسبة ، فهي معرفة موجودة بالعقل وتذكر بـ " الحدس : The Intuition " ٥٥ دفعة واحدة وليست تدريجيا . ومنهاج المعرفة العقلية هو منهاج استنباطي (Deductive) ، بينما منهاج المعرفة الحسية هو منهاج استقرائي (Inductive) . وتبدأ المعرفة العقلية بالديهيات أو المسلمات أو الفروض الأولية أو بهم جميعهم (وهي أوليات معرفة وصادقة) لتنتهي بالحقائق الواقعة . أي أن المعرفة العقلية تبدأ بالنظرية وتنتهي بالواقع . كما يعرف أيضا " التفكير العقلي " باسم " التفكير الميتافيزيقي " . وأهم فلاسفة هذه الفلسفة هم ؛ ديكارت ، وإسبينوزا ، ولايبنتز . وسوف نعرض باختصار إلى أهم اتجاهاتهم الفلسفية كما يلي .

رينيه ديكارت : René Descartes (١٥٩٦ - ١٦٥٠) . عَلّق بعد تخرجه من كلية

الجزويت ، بأنه على الرغم من دراسته بأفضل الكليات وعلى أيدي أفضل رجال العلم إلا أنه زاد شعورا بالجهل ، وكان سيكون قد خرج بنفس الشعور من جامعة كمبردج . وقد اعتقد ديكارت أن أكثر الطرق الفلسفية إثارة هي المعرفة العقلية ، فعن طريق التأمل والعقل نصل إلى معرفة اليقين . فالمعرفة لديه ذهنية لا حسية ، لأن المعرفة بطريق الحواس غير يقينية والأشياء لا تفهم كما تظهر للحواس بل كما تتراءى للذهن . وقال بأن المعرفة اليقينية هي أفكار فطرية (Innate Ideas) تولد مع الإنسان ولا تكتسب بالتجربة ، وأن العقل فقط هو مصدر المعرفة اليقينية عكس المعرفة الحسية ، وأن هذه المعرفة تستند إلى الاستنباط العقلي (Deduction) ، بحيث ينتقل الذهن مباشرة من المجهول إلى المعلوم .

وتبدأ المعرفة لدى ديكارت بالشك في كل شيء ما عدا الفكر . وفي عبارته الشهيرة " أنا أفكر إذن أنا موجود : I think therefore I am " ، وهي باللاتينية " Cogeto ergo sum " (ولهذا يعرف هذا البرهان باسم الكوجيتو) ، توضيح لمنهجه الفلسفي للمعرفة ، وهو إذا

٥٥ الحدس : The Intuition : هو الإدراك المباشر للحقيقة أو الحقيقة المقترحة ، بدون الإستعانة بأية عملية عقلية واعية . ويطلق نفس المصطلح أيضا على " الملكة " التي يتم بواسطتها هذا الإدراك وقد عرف " برجسون " الحدس بأنه الملكة التي نتمكن بها من رؤية الكون مباشرة بوصفه كلا منظما و [هنري برجسون : هو فيلسوف فرنسي (١٨٥٩ - ١٩٤١) ، نال جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٢٧] .

توقفت عن التفكير فأين الدليل على وجودي ؟ وقد قال ديكارت بأاساسيات (أو جواهر) ثلاثة هي : المادة والعقل والله . والمادة لديه هي الكون الفيزيائي والذي تكون أجسامنا جزء منه ، أما العقل والله فهما الروح أو الفكر لديه . وكان يعتقد أن العقل يشبه الله فكلاهما مفكر ، ولكن ليس لديهم وجود فيزيائي ملموس ، وكان يؤمن بأن الله لانهائي ولا يتوقف وجوده على خالق آخر .

ويقول ديكارت بأن الفلسفة تشبه الشجرة جنورها الميتافيزيقا وجذعها الفيزياء وأغصانها هي العلوم الأخرى . وقد تأثر هيديجر (أحد رواد الفلسفة الوجودية) بهذا التحليل الديكارتي وتساءل في أي تربة توجد جذور شجرة الفلسفة هذه ؟ وقد وضع ديكارت لنفسه مبادئ أخلاقية فلسفية معتقدا أنها ستقوده إلى السعادة ، مع الإلتجاء إلى الديانة والتي فيها عظمة الله .

ثم نأتى إلى إسبينوزا (باروخ بينديكت إسبينوزا : Baruch Benedict Spinoza) الذى قدم إلى هولندا مع أسرته اليهودية من البرتغال . وقد كرس حياته للدراسة الفلسفية ، بينما كان كسب عيشه من صقل الساعات ، وقد رفض وظيفة أستاذ للفلسفة فى هيدلبرغ معتقدا أن ذلك سياخذه من حريته وهويته . ومن كتبه " المعاهدة السياسية اللاهوتية " الذى نشر تحت اسم مستعار وأثار ضجة كبيرة لأرائه التشككية الدينية .

وقد هاجم إسبينوزا رجال الدين اليهودى وقال : " إنهم يتربصون بالفلسفة ورجالها ، ويعلمون بأن إظهار الحقيقة وتبديد الجهالة سيؤدى إلى إزالة الغشاوة عن قلوب الناس وعقولهم ، لأن الجهل هو وسيلتهم الوحيدة للاحتفاظ بسلطتهم ونفوذهم " . ولهذا السبب أعلن الكنييس اليهودى (المجلس المللى) عام ١٦٥٦ حرمان إسبينوزا من الرحمة ، وإنزال اللعنة به ، وفصله عن شعب إسرائيل ^{٥٦} . وقد اتهم المجلس المللى إسبينوزا بالهرطقة (أى الضلال الدينى) ، وكانت التهم الموجهة له : هو أنه يقول أن لله جسدا هو عالم المادة (أو الكون) ، وأن الملائكة خلط وهذيان ، وأن النفس قد تكون مجرد الحياة ، وأن التوراة القديمة لم تذكر شيئا عن الخلود . وقد حاول أحد الطلاب المتعصبين قتله نتيجة آرائه الدينية هذه فأصابه بجرح فى رقبته ، ولكنه نجى من الحادث . وقد جعله هذا الحادث يمضى حياته منعزلا مع الفلسفة فى غرفة عند عائلة خارج المدينة (أمستردام) .

^{٥٦} " قصة الفلسفة " ؛ ول ديورانت . ترجمة د. فتح الله المشنغ . مكتبة المعارف ، بيروت . ص ١٩٢ ، وما بعدها .

وتتسم فلسفة إسبينوزا بالوحدانية (Monism) ، والجوهر في فلسفة إسبينوزا هو الله أو الطبيعة ، وإنه سبب وجود الأشياء جميعا ، وكل حقيقة ما هي إلا صفة من هذا الجوهر . وكان هدف إسبينوزا أن يحررنا من الخوف وانفعالاته . فكان يقول بأن العاقل لا يندم على فعل أو فاجعة ، فالماضى والمستقبل ثابتان لا تعديل بهما ^{٥٧} . والمعرفة في نظر إسبينوزا قوة وحرية والطريق الوحيد للسعادة . ويقال أن إبداع إسبينوزا المنهجي الفلسفي يكمن في الطريقة التي يجمع فيها بين المبادئ الديكارتية وبعض المبادئ الأرسطوطاليسية .

ثم نأتى إلى لايبنتز (غوتفريه ولهم لايبنتز : Gottfried Wilhelm Leibnitz) من مدينة لايبزج بألمانيا . وقد رأينا مما سبق ؛ أن ديكارت كان يقول بجواهر ثلاث هي العقل والمادة والله ، وقال إسبينوزا بالجوهر الواحد وهو الله . أما لايبنتز فكان يعتقد بعدد لا متناه من الجواهر المفردة سماها " المونادات : Monads " . وكل جوهر هو

^{٥٧} ولا أدري .. أبكى تلك الكلمات السطحية للتححرر من الخوف . فبديهى مثلا لا يمكن التحرر من خوف الموت ، وهو قمة الخوف وإنفعالاته ، إلا بالإدراك اليقيني للفرد لما يحدث له عند الموت وبعده . ولا نجد هذا اليقين إلا في الديانة الإسلامية فقط . ويعرض المولى - عز وجل - قضية التحرر من الخوف على نحو مطلق ، ومنها الخوف من الموت في القضايا الاختيارية (أى التى يمكن التحقق من صدقها بالإختبار) التالية في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَرَوُا عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) لَخُلِئَ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى السَّلْهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٤) وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِنَّمَا يَرْتَعَنُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نُزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ﴾

(القرآن المجيد : فصلت {٤١} : ٣٠ - ٣٦)

وتنزول الملائكة يتراوح بين الإلهام أو القذف الروحي أو القلبى إلى ظاهر النص الحرفى ... ولهذا نرى المسلم الحق لا يتهيب الموت . بل إن الأمر كان يصل ببعض صحابة الرسول (ﷺ) إلى رؤية مقاعدهم من الجنة قبل موتهم ، ولهذا كانوا يستعجلون نيل الشهادة . وفى هذا المعنى يقول لنا المولى عز وجل :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرَحِمَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) ﴾

(القرآن المجيد : آل عمران {٣} : ١٦٩ - ١٧٠)

فرد — متناه — وله صفة جوهرية واحدة هي الفكر أو الله . وفوق المونادات المتناهية توجد المونادات العظمى اللامتناهية أو الله . وأفكاره هذه نجدتها في علم المونادولوجيا (**Monadology**) ، أى علم الجواهر . ويقول بأن رؤية الجواهر (أى جوهر الأشياء) هي رؤية فطرية ، وتنتج تلقائياً من طبيعة داخلية لا من تجربة عملية (لاحظ الإشارة هنا إلى الفطرة) . ويعتقد لايبنتز بأن الله أكمل كائن وموضوع كل الكمالات ، ويعرف الكمال بأنه " صفة بسيطة إيجابية ومطلقة تعبر دون حدود عن كل ما تعبر عنه " ٥٨ .

٣ . ٤ . ٢ . الفلسفة الحسية (Empericism)

لقد رفض الحسيون العملية العقلية التأملية ، وأن الأفكار الفطرية هي مصدر المعرفة ، واستبدلوها بالتجربة اعتقاداً منهم أن المعرفة مكتسبة وجزئية ومتغيرة ، مستندين على ما جاء به أرسطو بأنه لا يوجد في العقل ما لم يكن قبلاً في الحواس . ولهذا يقول أصحاب هذه الفلسفة بأن الحواس والتجربة هما مصدر المعرفة . ولهذا كان منهجهم هو " منهج إستقرائى : Deductive " لا " منهج إستنباطى : Inductive " كما في الفلسفة العقلية . وأهم فلاسفة الفلسفة الحسية هم ؛ جون لوك ، وباركلي ، وديفيد هيوم . وسوف نعرض باختصار إلى أهم آرائهم واتجاهاتهم الفلسفية فيما يلي .

جون لوك : **John Locke** (١٦٣٢ - ١٧٠٤) ، فيلسوف إنجليزي ، تميزت فلسفته بأنها تجريبية ، وقال بأن المعرفة تأتي من " الحس الذاتى : Self-perception " ، وأن التجربة هي ينبوع جميع أفكارنا . ويرفض لوك الأفكار الفطرية ، ويرى أن العقل سلبي (Passive) ولا يلعب دوراً نشيطاً في تكوين الأفكار ، لأن الأفكار تأتي للعقل وتصح له عن الأشياء الخارجية بالحس . فمثلاً رائحة الزهور تأتي لنا بحاسة الشم ، كما إن فكرة البياض تأتي لنا من خلال حاسة النظر ٥٩ . كما وأن هناك أفكار أخرى نستلهمها بواسطة أكثر من

٥٨ وبديهى لم يذكر لنا لايبنتز ماهى الكمالات الإلهية التى يقول بها ، وبأنها " تعبر دون حدود عن كل ما تعبر عنه " ، ولا أدرى إن كان هذا يمثل تعريفاً أم مجرد إنفعال ذاتى (أو فطرى) لما ينبغى أن يكون عليه الكمالات الإلهية ، لا يقدم شيئاً ينكر عن هذه الكمالات . أنظر الملحق الأول عن الصفات أو الكمالات الإلهية ، التى يذكرها الله — سبحانه وتعالى — عن نفسه (هو محصياها) ، وكما تجيء بها الديانة الإسلامية .

٥٩ فى الحقيقة ؛ نحن لا نستطيع أن نجعل " الحاسب الآلى " أو " الكمبيوتر " التعرف على أى شيء مهما صغر ، مالم يكن هذا الشيء قد تم وضعه مسبقاً فى ذاكرة الحاسب . فإذا أردنا — مثلاً — أن نجعل الكمبيوتر التعرف على طغرة ما ، فلا بد لنا من تزويد الكمبيوتر بصورة الطغرة ، أو بالموصفات الخاصة بها حتى يمكن التعرف عليها عند التقاط صورتها بواسطة الرادار مثلاً . وكذلك

حاسة مثل : الحركة والامتداد والشكل . واعتبر لوك أن اللون والطعم والرائحة والصوت هي " كفيات ثائية أو ثانوية : Secondary qualities " ، منفصلة عن الجسم ومكانها خارجه . بينما الامتداد والشكل والحركة هي " كفيات أولية : Primary qualities " غير منفصلة عن الجسم . وكما رأينا ؛ فقد سبق لوك في هذا المذهب الحسي كل من توما الأكويني ، وفرنسيس بيكون متأثرين في ذلك بفلسفة أرسطو ، كما أكدوا على أهمية المنهج الاستقرائي أو التجريبي . وليس هناك في فلسفة لوك " قوانين أخلاقية : Moral Rules " ، فجميع مبادئنا الأخلاقية تتبع من خبرتنا الحسية . فالعدالة — مثلا — مستقاة من تجربتنا ، وهي أيضا مستنتجة من واقع خبرتنا . والخير لدى — لوك — هو ذلك الشيء الذى يزيد من متعة العقل أو الجسم ويبعد الألم ، بينما الشر هو ذلك الشيء الذى يسبب الألم ويبعد اللذة .

ثم نأتى إلى جورج باركلي : George Berkeley (١٦٨٥ - ١٧٥٣) ، وهو فيلسوف إيرلندى ، قال " بعدم وجود العالم المادى : Matter is non - existence " . وقال بأن ظواهر العالم المادى تخضع لظواهر العالم الذهنى ، فالمعرفة فى فلسفة باركلي لا ترجع إلى جوهر مادى بل ترجع إلى " وجود روحى : Spiritual Being " ، كما وإن الأشياء ليس لها وجود مستقل عن العقل ، ولا يوجد شئ إلا إذا كان مدركا بالذهن . فمثلا هو لا ينفى وجود الكرسي فى الغرفة طالما أنه لا يوجد من يراه ، فالشئ يوجد وإن لم ير ، لأن الله يراه . والله هو الذى يطبع أفكارا على عقل كل من يدخل الغرفة ليرى الكرسي . أى أنها أفكار فى العقل الإلهى فى الأصل ، فهى توجد لأن الله يراها ويدركها ثم يجعلنا نراها وتتركها بعد ذلك .

ولهذا جاءت فلسفة باركلي مادية مثل فلسفة لوك ، ولكن الفرق أن لوك قال بوجود المادة مستقلة عن العقل ولهذا يراها العقل ، بينما قال باركلي بأن الوجود المادى قائم فى العقل الإلهى ، فهو الذى يرى المادة ويدركها أولا ، ثم يجعلنا نراها وندركها ثانيا . أو أن لوك قال برؤية المادة مباشرة ، بينما قال باركلي برؤية المادة من خلال الرؤية الإلهية لها . وهو بهذه النظرة يصبح منهجه مثاليا (أى الإيمان بوجود الله) ولكنه فى نفس الوقت تجريبي ، بمعنى أن الأشياء المطبوعة على الحواس — من قبل الله — هي الأشياء الحسية . ولهذا نرى باركلي قد جمع بين الفلسفة الحسية (مثل لوك وهيوم ، كما سنرى) وبين الفلسفة المثالية : Idealism .

إذا أردنا أن نتعرف الكمبيوتر على ذرات عنصر ما ، فإن علينا تزويدنا بخصائص ومواصفات ذرات هذا العنصر حتى يستطيع التعرف على ذراته . وهكذا بالنسبة لأى شئ آخر ، وهذا ما يعنى أن المعرفة لابد وأن يكون أصلها عقليا وليست حسية ، وذلك بعد قيامنا ببناء أسلوب التعرف على الأشياء فى الحاسبات الآلية (أنظر كذلك الملحق الرابع من هذا الكتاب) .

وأخيرا نأتى إلى ديفيد هيوم : David Hume (١٧١١ - ١٧٧٦) ، الذى كان ينفى وجود الأفكار الفطرية المطلقة كطريق للمعرفة ، ويؤكد على أن المعرفة تأتى بطريق التجربة والملاحظة . ولهذا كان يرى أن المنهج التجريبي : Experimental Method (الذى طبق بنجاح فى العلوم الطبيعية) يمكن تطبيقه أيضا فى دراسة الإنسان .

وكان يرى أن طبيعة الإنسان دائما ثابتة ، ولهذا يودى فيها الدافع المعين إلى نوع معين من السلوك . ولو لم يكن سلوك الإنسان مطردا - إطاراد الظواهر الطبيعية - لاستحال علينا أن نحكم على أحد . غير إنه لا يجوز أن نفترض أن هذا الاطراد فى أفعال الإنسان إطراد كامل ، فليس معنى أن تتشابه الظروف أن تخلق دائما نفس السلوك ، لذا يجب علينا أن نعمل حسابا لتنوع الشخصيات الإنسانية فى رد فعلها تجاه المؤثرات البيئية . لأننا عندما نلاحظ سلوك الناس ، إنما نلاحظ تنوعا فى سلوكهم حتى فى الظروف المتشابهة . وبهذا فإننا ننتهى من ذلك إلى مجموعة مبادئ تجري على نسةأ أفعال الناس ، بدل أن ننتهى إلى مبدأ واحد ٦٠ ، كما هو الحال فى القانون الطبيعي الذى ينطبق على الجمادات .

ويقول هيوم إن مبدأنا العام فى المعرفة الإنسانية كلها هو نوعان لا ثالث لهما ؛ فهى إما " إنطباعات " تقع على الحواس مباشرة ، أو " أفكار " تكون هى نفسها الانطباعات بعد أن تزول محدثاتها من أمام الحس ، فتبقى صوراً ذهنية لا تختلف عن الانطباعات فى حالتها الأولى إلا من حيث درجة الوضوح . فالفكرة لا تختلف عن الانطباع الذى أحدثها إلا أنها تكون أقل وضوحا وأبهت لونا ٦١ .

ويرى هيوم أن العقيدة الدينية هى فرع من الغرائز (وليست غريزة أصلية) لتعدد شكل الديانات ٦٢ ، شأنها فى ذلك شأن الفضائل الأخلاقية كالعذالة والوفاء بالعهود وما إلى ذلك . وأن العقيدة مستمدة من العواطف الفطرية للإنسان . وكان يرى وجود " الله " لا خلاف عليه ، ولكن المشكلة لديه هو مدى ما يعلمه الإنسان عن طبيعة الله وخصائصه . وكان يقول بأنه

٦٠ لم يقدم لنا هيوم شيئا يذكر عن هذه المبادئ ..!! التى يمكن أن تلقى الضوء على طبيعة الإنسان وماهيته . فلم يتجاوز فكره ترديد كلمات صياغية مختلفة لا تقدم ولا تؤخر ..!! مثل : إنطباعات ... رد فعل ... أفكار ... الخ . وحتى عند تعريف هذه الكلمات بدقة كافية ، فإنها لن تعطينا أى دلالة على وجود الإنسان ومصيره ، كما لن تلقى أى ضوء على وجود الخالق وغاياته من خلقه للإنسان وللوجود .

٦١ " نوابغ الفكر الغربى (٧) : ديفيد هيوم " ؛ د. زكى نجيب محمود ، دار المعارف . ص : ٩٨ / ١١٤ .

٦٢ راجع الفصل الثاتى (الدين وظاهرة التعدد) . راجع رأى هيوم عن وجود " الله " .

يمكن أن نهتدى إلى خصائص الله مستنتجة من خصائص الإنسان ، لوجود تشابه بينهما ، وعندئذ يكون الفرق في الجانبين في الكم وحده لا الكيف .

وعلى هذا الأساس ينكر هيوم موقف الملحد إنكارا تاما ، ذلك إذا ما أريد بالإلحاد الشك العقلي في وجود " الله " ، لأن " الوجود الإلهي " ، كان يراه أمرا ناشئا عن الوجدانات الفطرية ، ولا شأن للتفكير العقلي به . وفي نفس الوقت كان يرفض هيوم أن يرتقى في أحضان الإيمان الساذج ، ما دام العقل لا يستطيع أن يهدى الإنسان إلى شيء يطمئن إليه .

وكان يقول بأن الأساس الذي تقوم عليه صدق الديانة المسيحية أضعف وأوهى من الأساس الذي تقوم عليه صدق ما تدلنا عليه الحواس . فمعجزات المسيح مروية عن شهود أقدمين ليسوا ثقات ، هذا إلى جانب جهلهم ، لذلك فإن احتمالات خداعهم — من جانب المسيح — تكون أكثر ترجيحا من حدوث المعجزة نفسها أمامهم ٦٣ .

٣ . ٤ . ٣ . فلسفة التنوير (The Enlightenment)

وهي فلسفة توجه اهتمامها إلى المعرفة العلمية واكتشاف القوانين التي تحدد سلوك الإنسان . وقالوا بأن حقل العلوم التجريبية يمكن تطويره ليشمل العلوم الإنسانية بغية إصلاح المجتمع ، حيث اعتقدوا أن في إصلاح المجتمع سعادة للفرد . وكان من بين برامج الإصلاح لديهم ، الإصلاح الديني (Religious Reform) ، كما حاولوا فصل الأخلاق عن اللاهوت والميتافيزيقا . واعتبروا التطبيقات الكنسية خاطئة وقالوا بإصلاحها ، كما اعتقدوا في أن الديانة الطبيعية (Natural Religion) هي الديانة الصحيحة ، وهي تعنى العبادة البسيطة لله ٦٤ . وتنقسم فلسفة التنوير إلى قسمين أساسيين : هي الفلسفة الرومانسية التي تؤكد على دور الشعور في المعرفة ، والفلسفة النفعية التي تقول بأن الأعمال تكون صالحة متى كانت نافعة . وسوف نعطي شرحا موجزا لكل منهما وأهم فلاسفتها فيما يلي .

٦٣ المرجع السابق ؛ ص : ١٦٢ / ١٧٠ .

٦٤ " المرجع في الفكر الفلسفي " دكتورة نوال الصراف ؛ دار الفكر العربي . ص : ٢٠٠ . وتعرف الديانة الطبيعية باسم " مذهب الربوبية : Deism " : وهو المذهب الفكري الذي يدعو إلى الإيمان بدين طبيعي مبني على العقل لا الوحي ، حيث يقول هذا المذهب بأن الله قد خلق الكون وهو يجري الآن بدون تدخل منه . تماما كما تقول أنت بأن صانع الساعة قد صنعها ، وهي تجري الآن بدون الحاجة إليه بعد أن صنعها .

[١] الفلسفة الرومانسية (Romanticism)

وتنسب هذه الفلسفة إلى جان جاك روسو : Jean - Jacques Rousseau (١٧١٢ - ١٧٧٨) . وتقول هذه الفلسفة بالحرية والمساواة ، وبأن الإنسان يولد حراً غير أنه في كل مكان مقيد بسلاسل . والإنسان بطبيعته فاضل غير أن المدنية تسبب عدم مساواته ، والمجتمع ومؤسساته تجعله سيئاً . وفي كتابه " **العقد الإجتماعي : Social Contract** " ^{٦٥} دعى إلى الديمقراطية ، وإنكار حق الملوك الإلهي . وقال بأن الأفراد أحرار في دولة الطبيعة ، وكيف أن النظام الإجتماعي قد قضى على حرية الإنسان البدائي . أما في كتابه " **الأميل : Emile** " فقد بحث فيه روسو التربية طبقاً لمبادئ الطبيعة مما أثار سخط الكنيسة ، فاضطر إلى اللجوء إلى سويسرا هرباً من الكنيسة .

ويعتقد روسو أن الشعور سابق للذكاء ، وما نشعر به بأنه صائب فهو صائب ، وما نشعر به بأنه خاطيء فهو خاطيء ، وهذه هي أسس المعرفة لدى روسو . كما كان يقول بأن أساس عواطفنا التي تولد معنا وتبقى معنا هي " حب البقاء " . وأن هذا الشعور بدائي وجزيري ويسبق الانعكاس أو الاستجابة . ولذلك فإن شعور " حب الذات " عند الطفل هو الذي ينبثق منه حب الغير . والأخلاق تبنى على هذه المشاعر الطبيعية . وأخلاقنا في حياتنا تعتمد على غرائزنا وشعورنا . كما وأن امتداد حبنا الذاتي للغير يتحول إلى فضيلة ، والفضيلة تجد جذورها في قلب كل واحد منا .

[٢] الفلسفة النفعية أو المنفعية (Utilitarianism)

يعتبر جيرمي بنتام : **Germev Bentham** (١٧٤٨ - ١٨٣٢) مؤسس هذه الفلسفة ، وهي تعرف أيضاً بالفلسفة البنتامية (**Benthamism**) ، أو مبدأ المنفعة لدى بنتام . وهو يعني أن كل فعل يعتبر أخلاقياً مادام ينتج سعادة . كما وأن تحقيق أعظم الخير لأكبر عدد من

^{٦٥} وهو عقد وهمي بين المحكومين وحكامهم . وتقول نظرية العقد الإجتماعي إن الناس عاشوا في العصور البدائية في حالة طبيعية فوضوية ، ثم أنشأوا المجتمعات والحكومات بعد ذلك ، من طريق تخليهم عن حرياتهم الطبيعية لسلطة حاكمة ، لقاء الأمن والنظام اللذين تعهدت هذه السلطة بتوفيرهما لهم . وعلى الرغم من أن نظريات العقد الإجتماعي يمكن إرجاعها إلى اليونان القنماء ، فإنها لم ترجع إلا في العقد السابع عشر والثامن عشر ، حين ارتبطت بأسماء توماس هوبز ، وجون لوك ، وجان جاك روسو . وقد اختلفت نظريات العقد الإجتماعي تبعاً لأغراضها . فبعض هذه النظريات أعد لتبرير سلطة الحاكم (وهذا ما فعله هوبز) ، وبعضها أعد لحماية المحكومين من استبداد الحاكم (وهذا ما فعله لوك ، وروسو) . [عن موسوعة المورد الإلكترونية لسنة ١٩٩٥]

الناس يجب أن يكون هدف السلوك البشرى . ولتوضيح منهاج بنتام الفلسفى المبني على المبدأ النفعي ، نشير إلى المثال الذى يضربه لنا فى شأن محاولته للانتهاج إلى قرار حول أخذ ابن أخيه إلى السيرك ، أو أن يمضى أمسيته فى البيت مع كتاباته ؟

وفى هذا المثال يقول بنتام : إنه يعرف أن السيرك ممل بالنسبة له ، وهذا يسبب له ألم بقدر ٥ وحدات ، ومتعة أو سعادة بقدر ٢ وحدة (وحدتين) . بينما الذهاب إلى السيرك يعنى ١٠ وحدات سعادة بالنسبة إلى ابن أخيه ، فتكون النتيجة النهائية هى ($١٠ + ٥ - ٢ = ٧$ وحدة متعة) . وبذلك يمكن أن يصل إلى أن قرار الذهاب إلى السيرك يكون قرارا صائب لأن نتيجته متعة أكثر .

ويدهى من السهل الحكم بعدم واقعية هذه الفلسفة ، لأنها تعتمد على وحدات لا يمكن قياسها أو تحديدها أو حتى تعريفها على نحو معقول . فمن منا يستطيع أن يقوم بتعريف وحدة للألم ، ووحدة للمتعة !!..

وإذا كان الذهاب إلى السيرك يسبب خمس وحدات ألم لدى " بنتام " . فقد يكون الذهاب إلى السيرك لدى شخص آخر غير بنتام ، يوازى مائة وحدة متعة بدلا من الخمس وحدات ألم هذه . فبدهى إن مثل هذه الوحدات لا يمكن تعريفها من جانب ، كما وإنها نسبية من جانب آخر ، إذ تتوقف هذه الوحدات على الفرد ذاته وعلى اتجاهاته الفكرية ، وبالتالي فإن معيارها - أى معيار وحدات المتعة والألم - هو معيار غير مطلق !!..

وهذه الفلسفة تشبه إلى حد بعيد القول بأن " الأخلاق تخضع لمعايير المنفعة الفردية " . وقد سبق ، وأن بينا فى الفصل الثانى ، بأن القانون النفعي السائد فى عالم الجريمة هو " اللاأخلاق أو عدم التقيد بالأخلاق " هى المعايير النفعية التى تحكم هذا العالم . فمثل هذه الأمور هى أمور نسبية بحته إلى حد بعيد .

وفلسفة بنتام فى السياسة والقانون ما هى إلا تطبيق لمبدئه الفلسفى وهو أن السعادة العامة ومصالحة المجتمع عموما ؛ هى نتيجة منفعية حسابية لمجموعة المتع والآلام الفردية . وبهذا لم تقدم هذه الفلسفة شيئا عن الإنسان أو عن الدين أو عن الإله .

٣. ٤. ٤. الفلسفة الكانطية (Kantianism)

وهي الفلسفة التي تقول بأن المعرفة تتبع من مصدرين ؛ هما الفهم (Understanding) ويمثل التفكير الميتافيزيقي ، والحس (Sensibility) أو الواقع (Actuality) ويمثل التفكير العلمي . وبالجمع - فقط - بين التفكيرين الميتافيزيقي والعلمي ، يمكن الحصول على المعرفة المتكاملة . وتنسب هذه الفلسفة إلى مؤسسها عمانوئيل كانط Immanuel Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤) . ويقول كانط بأن المعرفة الميتافيزيقية يمكن الحصول عليها بواسطة ما يسميه بالسلفية أو السبقية (A priori) أو البرهان الأولي المجرد ، أو البرهان القبلي . بينما يمكن الحصول على المعرفة العلمية بواسطة البرهان الحسي الواقعي ، وهو برهان لاحق (A posteriori) . ويقول بأن الوعي يفكر والحس يعطي موضوع الفكر ، فالمعرفتان متداخلتان ووحدتهما تعطينا المعرفة المتكاملة . وهكذا تميزت فلسفة كانط بالجمع بين الفلسفتين العقلية والحسية أو التفكيرين الميتافيزيقي والعلمي .

٣. ٤. ٥. الفلسفة المثالية : Idealism (أو الفلسفة الهيجيلية : Hegelianism)

وتتميز الفلسفة المثالية بمنهجها الذي يفسر الحقيقة بالروح أو العقل مستندا إلى مبادئ ميتافيزيقية . ونواة هذا المنهج يرجع إلى أفلاطون ، الذي كان يؤكد على أن العقل هو مصدر الحقيقة المطلقة . وقد عرفت فلسفة أفلاطون نوعين من الوجود ؛ العالم الطبيعي ، أو عالم الظواهر أو الظاهرات (The Phenomenal World) وهو العالم الذي يعرف من الحواس والتجارب ، والعالم الحقيقي (The Real World) وهو العالم المثالي الذي يعرف من خلال العقل . وفي العصور الحديثة ظهرت الفلسفة المثالية بوضوح وتطورت أثر الفلسفة الكانطية ، كما سبق وأن بينا ، حيث أعطى كانط في فلسفته اهتماما لكلا من التفكير الميتافيزيقي (العقلي) والتفكير العلمي (التجريبي) على حد سواء .

ثم جاء الفيلسوف الألماني ؛ جورج ويلهلم فردريك هيجل : George Wilhelm Friedrich Hegel (١٧٧٠ - ١٨٣١) (أهم فلاسفة الألمان وأعظم فلاسفة الغرب ٦٦) ، ليتبنى الفلسفة المثالية ، وكان هدف هيجل هو البحث عن الحقيقة المطلقة ، وهي ليست الحقيقة

٦٦ ولد هيجل في شتوتجارت (Stuttgart) بألمانيا ، والتحق بجامعة تيوبجين (Tubigen) ، وعندما تخرج منها عام ١٧٩٣ ، بينت شهادته حسن سلوكه ومعرفته الجيدة باللاهوت مع الإشارة إلى عدم مقدرته على إستيعاب الفلسفة . وعكس شهادته التي تخرج بها من الجامعة أصبح هيجل أعظم فلاسفة الغرب .

التي تبحث عنها العلوم الطبيعية . ويقول هيغل ، بأن المعرفة تكمن في ذاتنا ووعينا ، وهي معيارنا . ففي داخل وعينا تبدو ماهية الحقيقة ومعيارها والتي نقيس بها معرفتنا . إن اختبارنا لمعرفة الحقيقة يتكون من مدى مطابقة الفكر : للشيء أو الوجود ^{٦٧} . فالوعي هو وعي لذاته من ناحية ، ووعي للشيء من ناحية أخرى ، وبما إن الإثنين ينتميان إلى الوعي ذاته ، فإن الوعي هو الذي يقرر إن كانت معرفتنا بالشيء تطابق الشيء ذاته . وبذلك تصبح الحقيقة هي الحقيقة التي تظهر للوعي . وكان هيغل يقول بأن العالم الملاحظ تنبثق حقيقتة عن قوة خارفة أو منبع روجي متعال (Transcendental) ^{٦٨} .

ويقول ج . هـ . ستيرلنج ، في كتابه " سر هيغل " الذي نشر في عام ١٨٦٥ :

" أن هيغل ليس له موضوع سوى إعادة الإيمان بالله ، والإيمان بخلود الروح وحرية الإرادة . فالفلسفة المثالية هي محاولة إعادة الإيمان بتدعيم القيم الإنسانية التي هدتها المكتشفات العلمية بشكل ظاهر ^{٦٩} "

ويستنبط هيغل قانونا كليا للوجود يقول فيه بأن : [كل شيء يوجد ويتم في إطار عملية التطور لروح العالم في صورة الأضداد ، وكل شيء يعتبر " لحظة " في هذه العملية ، وكل الأضداد تتقابل في شيء شامل لها ؛ وفي هذا الشيء الشامل ترتفع (أو تجتمع) تلك الأضداد مرة

^{٦٧} لقد أدرك هيغل بهذا فطرية المعرفة في العقل البشري ، كما جاء بها القرآن المجيد ، أنظر الملحق الرابع من هذا الكتاب ، حول قصة خلق الإنسان .

^{٦٨} بديهى أن هيغل يعنى بهذا وجود " الله " أو " الخالق " سبحانه وتعالى . وأن هذا الخالق ، هو مصدر وأصل كل معرفة عند الإنسان . وبديهى لم يتجاوز هذا الفكر الأربع كلمات التالية من القرآن المجيد ؛ كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. ﴾ (البقرة : ٣١) . أنظر كذلك الملحق الرابع من هذا الكتاب (حول قصة خلق الإنسان ، والنظرية الدارونية) .

^{٦٩} " فلسفة برتراند رسل " د. محمد مهران ؛ دار المعارف . ص : ١٩ وما بعدها . [وأود أن أشير هنا إلى أن المكتشفات الحديثة تهدد الإيمان بالله ، إذا كان الفكر الدينى هو فكر أسطورى ، كما هو الحال في الديانتين اليهودية والمسيحية . وبديهى إعادة الإيمان بالله - على هذا النحو - معناه العودة إلى الوثنيات الفكرية عن الدين ، ولهذا فقد فقدت المثالية الألمانية (أى الهيجيلية) قوتها وتأثيرها في العشرينات من هذا القرن ، بعد أن تم إكشاف ماهيتها .. كما لم يكن لديها ما نقوله عن الدين] .

أخرى ٧٠] . وبهذا ينتهي هيجل إلى الجدول الثلاثي الذي يأخذ صورة : (١) الدعوى :
وهي فكرة الوجود ؛ (٢) نقيض الدعوى : وهي فكرة العدم ؛ (٣) والجامع للدعوى
ونقيضة : هي فكرة الصيرورة .

وقد إنلتقط كارل ماركس هذه الثلاثية - فيما بعد - وقال بأن الدعوى هي المجتمع الرأس
مالي ، ونقيض الدعوى هي طبقة البروليتاريا (Proletariate) أي طبقة العمال أو الكادحين
، أما الصيرورة أو المركب الجامع للدعوى ونقيضة فهو المجتمع الشيوعي اللاطبعي ٧١ .

٣ . ٤ . ٦ . الفلسفة المادية (Materialism)

وهي فلسفة واقعية لا ميتافيزيقية ، نشأت كرد فعل أو ثورة على الفلسفة المثالية ، أو
الفلسفة الهيجلية ، وهي تنظر إلى الوجود والإنسان نظرة واقعية لا تأملية أو روحية . وتعتبر
المادة أساس المعرفة ، وأن مظاهر الوجود على اختلاف أنواعها تعتبر تطورا متصلا لقوى
مادية ٧٢ ، وكل ما هو عقلي يتطور عما هو مادي ، ولا بد وأن يفسر على أساس واقعي .
وأهم فلاسفة هذه الفلسفة المادية هو كارل ماركس : (١٨١٨ - ١٨٨٣) .

٧٠ لم يتجاوز هذا الفكر التعبير الحسابي البسيط : $١ + (-١) =$ صفر . فالواحد الأول (١) في
هذه المعادلة هو الوجود ، و الحد الثاني (- ١) هو النقيض ، والصفر في الطرف الشمال من
المعادلة (= صفر) هو الصيرورة .

٧١ أنظر التذييل السابق لبيان نفس المعنى . فالواحد هو المجتمع الرأسمالي ، و (-١) هو نقيضة
أي مجتمع الكادحين (البروليتاريا) ، والصفر هو المجتمع الشيوعي أي المجتمع اللاطبعي .

٧٢ لاحظ القفزة الواسعة في هذا الفكر المادي ، والذي بدأ من وجود الكون وماديته والإنسان
بشكلهما الراهن . وتعمى هذا الفكر عما هو سابق على هذا !!! فقد أغفل هذا الفكر الموجد لهذا
الكون ، والموجد لمادته ، والموجد للقوانين المادية التي تحكمه ، كما أغفل الموجد لهذا الإنسان
بوعيه وعقله وإدراكاته وإرادته ، والموجد للجانب الروحي فيه .. والموجد للعقل الإنساني والمقرر
بتطوره ، كما أغفل أيضا عددا لا نهائيا من الأمثلة التي تركت مفتوحة وبلا أجوبة في هذه الفلسفة .
وبديهى البدائل الدينية لدى الغرب ، هي المسيحية على النحو السابق صياغته في الباب السابق ،
وهذا مالا يمكن احتماله !!!

ومن أمثلة الفلسفة المادية : الفلسفة الماركسية : **Marxism** ، أو الفلسفة المادية الجدلية : **Dialectical Materialism** ٧٣ . ثم إنقسمت الماركسية فيما بعد إلى إشتراكية : **Socialist** ، وشيوعية : **Communism** .

وترجع جذور الفلسفة المادية الماركسية - في الواقع - إلى بعض الفلاسفة المتطرفين من الجناح اليسارى الهيجيلى الذين لم يهتموا بتفسير هيجل المثالى ، بل اهتموا فقط باستعمال بعض أفكاره ليحولوا المثالية الميتافيزيقية إلى فلسفة مادية . ومن أمثلة هؤلاء الفلاسفة نذكر فيارباخ : **Feuerbach** (١٨٠٤ - ١٨٧٢) ، وأرنولد روج : **Arnold Ruge** (١٨٠٢ - ١٨٨٠) .

وقد هاجم كارل ماركس الفلسفات المثالية غير الواقعية ، واتهما بأنها فلسفات لا تغنى ولا تسمن من جوع . ووصف أصحابها بأنهم فئة من الفلاسفة لم تستطع تغيير الواقع وإصلاحه ، فوضعت أحلامها وأمانيتها فى هذه الفلسفات . وقال ماركس : " لقد اقتصر الفلاسفة على تفسير العالم فى أنحاء شتى ، ولكن المهمة الحقيقية للفيلسوف هى تغيير هذا العالم " . ويتضح من هذا أن ماركس كان ثوريا أكثر منه فيلسوفا ، فالفلسفة لديه ليست إلا وسيلة لاتجاهاته السياسية .

وكان ماركس يهدف من هذا الهجوم إلى نقد الأوضاع الاجتماعية والسياسية السائدة فى وقته ، باعتبار أن نقد الفلسفة القائمة هى طريقة غير مباشرة لنقد الواقع . وطالب ماركس بأن تكون الفلسفة تعبيراً عن مشكلات الناس وألامهم كما تظهر فى الصراع بين القوى المستغلة وقوى الشعب العاملة ، أى تعبر الفلسفة عن العمل والحياة التى يعيشها الإنسان والمشكلات التى يتعرض لها . وهاجم كارل ماركس الدين ، واتهمه بأنه : " أفيون الشعوب " .

٧٣ يوجد من يعتبر المادية الجدلية أحد الأساسيين للفلسفيين اللذين تقوم عليهما الفلسفة الماركسية وليست الفلسفة الماركسية نفسها ، والأساس الآخر هو الفلسفة الهيجيلية . وليس هذا مهما فى حد ذاته ؛ إذ أن الخلاف بين الماركسية والمادية الجدلية يأتى فى الشكل النهائى فى التطبيق ، بينما الأساس الفكرى لهما فهو واحد . حيث تبين موسوعة : كتاب العالم (**World Book Encyclopedia, Vol. ١٣, p. ٢٥٢, ١٩٩٥**) ، أن المادية الجدلية قد ظهرت فى نهاية القرن التاسع عشر مع أعمال كل من " كارل ماركس " وعالم الاجتماع الألمانى " فريدريك إنجلز : **Friedrich Engels** " (١٨٢٠ - ١٨٩٥) ، وهما مؤسسى الفلسفة الماركسية ، واللذين صاغوا معا البيان الشيوعى .

وانتهى ماركس إلى نظريته التي تقول : بأن المجتمع البشرى يتطور بسلسلة من التناقضات (متأثرا في ذلك بالفلسفة الهيجلية على النحو السابق بيانه) وقال بأن المجتمع الرأسمالي (أي الدعوى : Thesis) ، يحدث نقيضة (أي نقيض الدعوى : Antethesis) وهو (البروليتاريا : Proletariat) — وهي طبقة العمال أو الكادحين — التي تتقضى هذه بدورها إلى تقويض الرأسمالية ^{٧٤} . ثم تنتهي الدعوى ونقيضها بالمزكب الجامع لهما وهو المجتمع الشيوعي اللاطقي . وهذا ما يعرف بالفلسفة الماركسية ، وأحيانا باسم الفلسفة الجدلية المادية ، وقد انقسمت فيما بعد إلى : الإشتراكية والشيوعية .

فالإشتراكية (Socialism) : في الفلسفة الماركسية ، هي المرحلة الانتقالية بين الرأسمالية والشيوعية . حيث توزع فيها السلع والرواتب توزيعا غير متكافئ وفقا لعمل الفرد . وفي هذا النظام — الاجتماعي — تخفى الملكية الشخصية ، وتمتلك الدولة فيه وسائل الإنتاج وتهيمن عليه .

أما الشيوعية (Communism) : فهي تعتبر المرحلة الأخيرة من مراحل تطور المجتمع في النظرية الماركسية ، حيث تضمحل فيها الدولة ، وتوزع السلع الاقتصادية توزيعا متساويا . ويعلن أصحاب هذا المذهب عن سعيهم لإقامة مجتمع بلا دولة . والشيوعية تدعو إلى إلغاء الملكية الخاصة ، وإحلال الملكية الجماعية محلها .

أما الشيوعية الروسية ؛ فهو مذهب مبني على أساس الإشتراكية الماركسية ، وعلى أساس الماركسية اللينينية ^{٧٥} ، وهذا المذهب يمثل الأيديولوجية الرسمية للإتحاد السوفيتي سابقا . وفيه يسيطر بموجبه حزب واحد على وسائل الإنتاج المملوكة من قبل الدولة . وعندما إنهار هذا النظام تبين بأن أعضاء الحزب الواحد قد نهبوا كل شيء ، ولم يتركوا شيئا للشعب .

^{٧٤} والتجربة البشرية التطبيقية ، تشير إلى خطأ هذه النظرية أو المنظور الماركسي ، فقد إنهار الإتحاد السوفيتي ، أحد تطبيقات الفلسفة الماركسية ، بينما المجتمع الرأسمالي مازال قائما كما هو .

^{٧٥} هي الفلسفة الماركسية بعد أن طعمها لينين بنظريات جديدة في موضوع الحزب ، والقومية ، وثورة البروليتاريا ، والإستعمار ، وحركات التحرر الوطني . وكان كارل ماركس قد تنبأ بأن الثورة البروليتارية سوف تنشب — أول ما تنشب — في الدول الأكثر تقدما في ميدان الصناعة ، فجاء لينين وفند هذه النبوءة مؤكدا أن شرارة تلك الثورة سوف تنلغ من البلدان الأكثر تخلفا ، أي عكس ما قال به ماركس .

[ملحوظة : لا أحد يعرف بالضبط كم عدد القتلى الذين قتلهم ستالين (١٨٧٩ - ١٩٥٣) إبان فترة حكمة للإتحاد السوفيتي (١٩٤١ - ١٩٥٣) ، ولكن الذي لا خلاف عليه هو أن عدد القتلى يقربون من عشرين مليوناً . ويعتبر ستالين - دكتاتور الإتحاد السوفيتي سابقاً - (وأسمه الأصلي يوسف فيسرايوفتش جوجا شفيلي ، ومحتمل أن يكون يهودي الأصل) أحد أئمة الحزب الشيوعي ، وإليه يرجع الفضل في نشر الشيوعية الدولية . وهو يعتبر أيضاً أحد العبقرات الشريرة في التاريخ لحجم الجرائم الهائل التي ارتكبتها في حق الشعب السوفيتي . وكما هو معروف ، أنه لا وجود للحرية الفردية أو الديمقراطية في دستور الإتحاد السوفيتي سابقاً] .

٣ . ٥ . الفلسفة المعاصرة (Contemporary Philosophy)

وتشمل الفلسفات المعاصرة ؛ الحركات الفلسفية الأوروبية والأمريكية وتطورها من نهاية القرن التاسع عشر وخلال القرن العشرين وحتى وقتنا الحاضر . ففي الواقع ؛ بعد انتشار الفلسفة المادية الماركسية كان هناك نداء بالعودة إلى الفلسفة الكانطية التي تقول بضرورة اعتبار التفكيرين الروحي والمادي معا . وقد أدى ذلك إلى ظهور الحركة الكانطية الجديدة ، أو الفلسفة الكانطية المحدثّة (Neo-Kantian Philosophy) ، والتي تهدف إلى تجديد فكر كانط مع إدخال بعض التعديلات عليه للتوحيد بين التفكيرين الميتافيزيقي والعلمي أو التوحيد بين العقل الخالص والعقل العملي أو التجريبي مع تجنب المبالغة في التفكير النظري أو التحيز للتفكير العلمي ^{٧٦} . ومن ممثلي هذه الحركة هيرمان كوهين : Herman Cohen (١٨٤٢ - ١٩١٨) ، و هنري بيرجسون : Henri Bergson (١٨٥٩ - ١٩٤١) . وقد إتجه كوهين مع آخرين معه ، أمثال بول ناتروب : Paul Natrop (١٨٥٤ - ١٩٢٤) ، إلى المدرسة الماربارغية (Marburg School) وأصبحوا من زعمائها . وهي المدرسة التي تقول بأن المعرفة هي " معرفة قبلية : A Prior " ، أو المعرفة السابقة ^{٧٧} ، وترفض نظرية معرفة الأشياء في ذاتها ، ولا تعتقد أنه يوجد حقيقة غير تلك الحقيقة التي نعرفها بالفكر . وهذا ينطبق على معرفة الذات والشئ والله ^{٧٨} . أما هنري بيرجسون (وهو من أسرة يهودية قدمت إلى

^{٧٦} لم يتجاوز هذا الفكر ، فكر الأفلاطونية المحدثّة إلا بقليل . فالإنسان يدور في فلك المعرفة العقلية ، أو المعرفة الطمعية ، أو الجمع بينهما ؛ ولكن بظهورات مختلفة ، وفي كل مرة يعتقد الفيلسوف أنه يأتي بجديد ، وما هو بجديد !!

^{٧٧} عودة مرة أخرى إلى الفكر الهيجلي ، والذي يدور حول المعرفة الفطرية ، والذي لم يتجاوز عن تفسير أربع كلمات فقط من كلمات القرآن المجيد في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. ﴾ (البقرة : ٣١) . أنظر الملحق الرابع من هذا الكتاب .

^{٧٨} ولم تقدم هذه الفلسفة شيئا يذكر عن " الله " ، باستثناء الفطرة ، أو الإدراك بوجوده .

فرنسا) ، فقد تميزت فلسفة بالثنائية التي تؤكد على ثنائية الروح والجسم ، وبمحاولة الجمع بينهما بطريق الفعل الإنساني (Human Action) . وقيل (حسب وصيته التي أذاعتها زوجته عقب وفاته والمؤرخة في ٢٨ فبراير ١٩٣٨) أنه تمنى لو أن قسيسا كاثوليكيا – وليس بروتستانتيا – يسير في جنازته ويصلى على جثمانه ، ولكنه لم يعتنق المسيحية خوفا من الاضطهاد ٧٩ .

وقد مهدت الفلسفة الكانطية الجديدة إلى ظهور الفلسفات المعاصرة ، وأهمها : فلسفة الظاهرات (Phenomenology) والفلسفة الوجودية (Existentialism) ، والفلسفة اللغوية (Linguistic Philosophy) والفلسفة الوضعية (Positivism) في أوروبا ؛ والفلسفة البراجماتية (Pragmatism) في أمريكا .

٣ . ٥ . ١ . فلسفة الظاهرات (Phenomenology)

وتنسب إلى إدموند هسرل : Edmond Husserl (١٨٥٩ - ١٩٣٨) ، وهو الذي أطلق هذا الاسم عليها ٨٠ . وبحسب على هذه الفلسفة أيضا فرانز برينتانو : Franz Brentano (١٨٣٨ - ١٩١٧) الذي تأثر به هسرل ؛ كما كان لهسرل نفسه تلاميذ نابيون أبرزهم مارتن هيدجر (١٨٨٩ - ١٩٧٦) ، وماكس شلر (١٨٧٤ - ١٩٢٨) ونيقولاي هارتمان (١٨٨٢ - ؟) .

وقد هدف هسرل إلى تأسيس فلسفة تبنى على أسس مطلقة (Absolute Foundations) . ويبدأ منهج هسرل بال مباشر (Immediate) ، ولكن ما هو المباشر ؟ إنه ليس العالم المحسوس كما عند التجريبيين والذي تبدأ فيه المعرفة بالتجربة ، كما إنه ليس بالعالم العقلي كما هو عند العقليين والذي تبدأ فيه المعرفة بالمسلّمات . بل يبدأ هسرل بموضوع الوعي

٧٩ " تاريخ الفلسفة الحديثة " يوسف كرم ، دار المعارف . ص : ٤٥٠ .

٨٠ ورد لفظ : " الظاهرات " ؛ عند الألمان لمبرت في كتابه " الأورجانون الجديد " (١٧٦٤) للدلالة على نظرية الظواهر الأساسية للمعرفة التجريبية ؛ وعند كاتط للدلالة على نفس المعنى ولكن في حدود أضيق في كتابه " ميتافيزيقا الطبيعة " (١٧٨٦) ؛ وعند هيجل في " فينومنولوجيا الروح " (١٨٠٧) للدلالة على المراحل التي يمر بها الإنسان حتى يصل إلى الشعور بالروح ؛ وعند هاملتون في " دروس في الميتافيزيقا " (١٨٥٨) للدلالة على فرع من " علم الفكر " وهو الذي يلاحظ مختلف الظواهر الفكرية ويعممها . [" تاريخ الفلسفة الحديثة " ، يوسف كرم ، دار المعارف . ص : ٤٦١]

(Consciousness) المستقل ، فهو لا يهتم إلا بما يبدو للوعى . وهذا يؤدي إلى اعتبار العالم المحيط بنا ظاهرة وجود ، وليس عالما موجودا .

وبهذا نرى أن منهاج الظاهرات لا يأخذ بالفروض أو المسلمات بل يأخذ بالوعى . وبهذا تبدأ المعرفة في هذه الفلسفة بـ " الماهيات : The Essences " بخصائصها الثابتة ، لا بالوجود . وبهذا المعنى يمكن تأسيس فلسفة لها نفس معنى العلوم والرياضيات . وليس مجرد فلسفة ذات آراء مسبقة لا مسوغ لها .

ويضع هسرل مبدئين أساسيين أحدهما سلبي والآخر إيجابي . المبدأ السلبي هو أنه " يجب التحرر من كل رأى سابق ، باعتبار أن ما ليس متبرهنا ببرهان ضرورى فلا قيمة له " . أما المبدأ الإيجابي يقول بأنه " يجب الذهاب إلى ماهية الأشياء نفسها " ، أى إلى الأشياء الظاهرة فى الشعور ظهورا بيئا ، مثل اللون الأزرق أو الأحمر أو الصوت ... وما إلى ذلك من ماهيات ثابتة ومدركة بحدس خاص . وبهذا تأخذ هذه الفلسفة على عاتقها إعادة وصف الظواهر بكل دقة وترتيبها بإحكام ، وخصوصا المعانى الأساسية فى العلوم ، بغية توضيحها وتعريفها .

ويقول هسرل إن فلسفة الظاهرات تختلف عن الفلسفة الديكارتية إلا أنها فى الوقت نفسه تعتبر إمتدادا لها ، إذ أنها تبعد عن كل ميتافيزيقى ساذج ، غير أنها لا تستبعد الميتافيزيقا نفسها . فيقول إن ديكارت كان فى حالة من الشك الكلى فى الوجود ، بينما نحن لا نرتاب فى الوجود ولا ننكر العالم الخارجى ... بل نطلب من العقل أن " يضع بين قوسين " الوجود الواقعى للأشياء بصفة مؤقتة ، حتى يتاح لنا تناول الموضوع بريئا من كل واسطة مشوهة للحقيقة ، وبالتالي يمكن أن ننظر فيه بنظرة صافية خالية من الشوائب ، وبذلك يمكن حصر الخصائص الجوهرية لهذه الأشياء .

ويقول هسرل أنه بعد الإنتهاء من عملية التجريد أو الإختزال للصفات الظاهرية ، فإننا نصل إلى الأنا المفكر (The Transcendental Ego) أو الشعور النقى (The Pure Consciousness) ، الذى يبقى فى الوجود حتى وإن تهدم العالم كله . وبهذا نرى أن فلسفة الظاهرات لم تتجاوز فى فكرها عن إدراك الفطرة ^{٨١} .

^{٨١} راجع الكلمات الاثني عشر السابقة التى قال بها القرآن المجيد فى بند ٥ التالى ؛ ص : ٥٧٨ .

ولنترك فلاسفة الظاهرات ليقوموا بإعادة توصيف الظواهر وتصنيفها وتدقيقها لنا ٨٢ .. ثم يقومون بإعادة كتابة ما نملك ، فهم يبدؤون بما نملك (من علم) .. ويدهيى سوف ينتهون إلى ما نملك (من علم) !!.. وهم لا يدركون أنهم لا يتقدمون بنا ولا بالعلم ، حتى خطوة واحدة للأمام !!..

٣ . ٥ . ٢ . الفلسفة الوجودية (Existentialism)

ترجع جذور هذه الفلسفة إلى سورين كيركيغارد : Soren Kierkegard (١٨١٣ - ١٨٥٥) ، وهو فيلسوف ولاهوتي داتمركى فقد الثقة بالكنيسة فهجرها كما هجر الجامعة ، وقال بأن المسيحية عبثة (Offense) أمام العقل ، ونحن لا نستطيع الإحاطة بها إلا بفعل للإرادة يتخطى العقل ، وتلك هي قفزة الإيمان . كما قال كيركيغارد بأن الديانة المسيحية عبث من العبث ، لأنه ليس ميسورا لأى فرد أن يفهمها ويبررها وفقا لمبادئها التقليدية ٨٣ .

وكيركيغارد هو أول من إستخدم لفظ " عبث : Absurd " ، واضعا بذلك أساس " الفلسفة العبثية : Absurdism " ؛ وهي الفلسفة التى تقول بأن الإنسان موجود فى عالم لاعقلانى خالى من المعنى (وذلك كنتاج طبيعى من الفكر اليهودى/المسيحى) ؛ وبأن محاولات الإنسان التى يقوم بها إلتماسا للنظام أو بحثا عنه تجعله فى صراع مع عالمه هذا . كما نقد كيركيغارد مبدأ الظاهرات ، وأسس " فلسفته العبثية " هذه التى تعتبر أساس الوجودية ، والتي تقول بأن " الوجود هو الذى يسبق الماهية : Existence precedes essence " ، وليس " الماهية هى التى تسبق الوجود : Essence preceds existence " (أنظر تذييل ٤٥ السابق) ، كما تقول بهذا فلسفة الظاهرات ، ومن هنا جاء اسم الوجودية .

ثم يأتى بعد كيركيغارد ، كارل يسبرز : Karl Jaspers (١٨٨٣ - ١٩٦٩) الذى يعتبر مهندس الوجودية ، وأول من إستخدم مصطلح وجودى (Existentialist) . وقد إهتم يسبرز بتحليل نظرة الإنسان تجاه العالم ، والقرارات التى يأخذها إزاء المواقف التى لا بد من مواجهتها مثل الموت والشعور بالذنب والتغيير ... وفلسفته لا تعتبر ميتافيزيقية أو علمية صرفة بل هى

٨٢ من بعض ما ترك هسرل ؛ مجموعة من الملزمات المكتوبة تقارب (٤٥٠٠٠) صفحة ، وقد تم نقلها مع مكتبته إلى أرشيف هسرل فى جامعة لوفين فى بلجيكا (Louvin in Belgium) .
[" المرجع فى الفكر الفلسفى " ، د. نوال الصراف الصايغ ، دار الفكر العربى ، ص : ٢٣٤]

٨٣ " موسوعة المورد الحديثة لسنة ١٩٩٥ "

وصف منظم للوجود الإنساني من حيث الوعي والتجربة مع اهتمام بإنسان اليوم . وتبدو أهمية التجربة في منهاج يسبرز ، في فلسفته عن الأخلاق ، في أنها تركز على القوة الكامنة لفردية الفرد الحرة وإختياره الحر .

ومن الفلاسفة الوجوديين كذلك **مارتين هيديجر : Martin Heidegger (١٨٨٩ - ١٩٧٦)** ، وهو أكثر الفلاسفة تمثيلا للفلسفة الوجودية في ألمانيا . ومعرفة الوجود هي مشكلة الفلسفة لدى هيديجر . فالحقيقة لديه هي إكتشاف الوجود . ولا يأخذ هيديجر بالمنهج العقلي أو المنهج الحسي بل بالوجود الكلي . فالمعرفة لديه ليست تجربة عقلية أو تجربة حسية بل هي معرفة وجودية . وقال بأنه ليس هناك أنا (Ego) أو ماهية (Essence) كبدائية للمعرفة ، بل هناك وجود في العالم (Being-in-the-world) ، وقد سمي هذا الوجود في العالم " ديزن : Dasein " ، أي الوجود .

ويقول هيديجر أن معرفة الإنسان للوجود يتمثل بالعلو (Transcendence) . ويميز هيديجر بين خصائص ثلاثة للمعرفة هي : الواقعية (Facticity) ، والوجودية (Existentiality) والفقدان (Fortfeiture) . أما الواقعية فتقول بأن ليس في الإمكان أن يكون هناك عالم بدوني أو أكون بدونه ، والوجود هو الوجود الذاتي الداخلي للإنسان ، أما الفقدان أو الخسران فهو حياة الإنسان مع الغير ومن أجل الغير وبذلك فهو في حالة اغتراب مع نفسه .

ثم **جابريل مارسيل : Gabriel Marcel (١٨٨٩ - ١٩٧٣)** ، ويعتبر من المساهمين في نشر الفلسفة الوجودية في فرنسا . ويقول مارسيل بأن الوجود خالد وأبدى وغير مستهلك ، وأنه فقط عن طريق المشاركة بالوجود يمكن للإنسان أن يقهر الوحدة واليأس . ففي الوجود نصل إلى إشباع لتجربة الحب والإبداع . ويأسف مارسيل لأن العلاقات الإجتماعية أصبحت علاقات تجريدية وإنتاجية يصبح الإنسان فيه " دور : Role " ، لا كـ " ذات حقيقية : Authentic Self " . فلم تعد العلاقات إنسانية بل أصبحت إنتقادية ، وبذلك أصبح الإنسان مغتربا لا عن ذاته فقط بل عن مجتمعه أيضا ، لأن قيمته تتحدد بمدى نجاح الدور الذي يقوم به ومدى تأثيره على الآخرين .

ثم نأتى إلى أكثر الفلاسفة الوجوديين أهمية وأكثرهم تأثيرا ، وهو **جان بول سارتر : Jean Paul Sarter (١٩٠٥ - ١٩٨٠)** . والوجود هو محور فلسفة سارتر ، فالوجود لديه يسبق الماهية ، وليس الماهية هي التى تسبق الوجود كما سبق وأن ذكرنا . ومتى كان الوجود

سابقا على الماهية فلن يبق للإنسان شيء يعين سلوكه ويحد من حريته . لهذا فقد قرر سارتر أن الإنسان حر تماما ، وهو الذى يصنع بنفسه هذه الحرية . فسارتر خلافا لكانط لا يعتقد بوجود سابق (A prior) بالأخلاق ، أى لا يوجد مبادئ أخلاقية أو أحكام قيمية بنفسها بل إننا نوجد قيمنا فى هذه الحياة . ولهذا كان الإنسان حرا كل الحرية فى كل ما يفعل ، لا يتقيد بأى شيء .

كما قرر سارتر أن الإنسان هو الذى يختار بنفسه صفاته المميزة له بعد وجوده (ومن هنا جاء اسم الوجودية ، كما سبق وأن أشرنا) ، وبهذا استبعد سارتر من دراسته البحث فى مسألة وجود " الله " تعالى ، واكتفى بدراسة الإنسان منذ وجوده فى الحياة ^{٨٤} ، وجعل مصدر هذا الوجود مبنيا للمجهول . ولهذا نجد أن جهد سارتر قد تركز على ، أو هو فى أساسه هجوم واضح ضد " الميتافيزيقا " ، أى ضد كل بحث عن أصل الوجود . ولقد أصاب أحد الباحثين ، وهو " بديرو ديسكوبس : Pedro Descops " ، حين قال أن مذهب سارتر قصد منه أن يكون دفاعا عن الإلحاد ^{٨٥} .

والوجودية لا ترى أن بوسع الإنسان أن يجد معونة أو علامة على الأرض تهديه السبيل (لاحظ - هنا - اليأس الواضح من الفكر الدينى المتاح له ، وهو اليهودية والمسيحية ، وإنه لا جدوى منهما) . لأنها ترى أن الإنسان يفسر الأشياء بنفسه كما يشاء ، وإنه محكوم عليه فى كل لحظة أن يخترع الإنسان . فما الإنسان " إلا ما يصنع نفسه وما يريد نفسه وما يتصور نفسه بعد الوجود ^{٨٦} " .

^{٨٤} يمكن هنا ملاحظة القفزة الهائلة فى هذا الفكر - تماما مثل الفلسفة المادية - وهو الفكر الذى يبدأ بوجود الإنسان ، ويتعلمى هذا الفكر عن الموجد لهذا الإنسان ، والموجد لوعيه وعقله وإدراكه وإرادته . كما تعلمى هذا الفكر عن الموجد للجانب الروحى للإنسان .. وعن الموجد والمقرر بتطور عقل الإنسان .. كما أغفل هذا الفكر أيضا الموجد لهذا الكون ، والموجد للقوانين المادية التى تحكمه ، وكذا الموجد لعدد لانتهائى من الأمثلة التى تركت مفتوحة وبلا أجوبة فى هذه الفلسفة . وبديهى تمثل هذه الفلسفة ، فلسفة سطحية ومتهاففة ، ولكننا نكاد نسمع هؤلاء الفلاسفة يقولون إن البدائل الدينية لدينا ، هى المسيحية على النحو السابق صياغتها فى الباب السابق ..!! وهذا مالا يمكن إحتماله أو أن نطيقه ..!!

^{٨٥} " الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين " د. محمود رجب ، دار المعارف . ص : ١٤٣ .

^{٨٦} ولا يعنى هذا الفكر إلا أن يكون الإنسان هو الذى خلق نفسه بنفسه .. كما ينكر وجود القضاء والقدر ..!! كما يعنى هذا - أيضا - أن الإنسان هو الذى سوف يحدد مصير نفسه بنفسه بعد هذا الوجود الأرضى ، أى بعد الموت ..!! فيكفى أن يفكر الإنسان بأنه سوف يكون فى نعيم أبدي - بعد الموت - لأن يكون فى نعيم أبدي . وأعتقد إن فكر كهذا يجعل من صاحبه أقرب إلى الجنون أو البلاهة منه إلى العقل . فلا يمكن أن يكون فكر كهذا فلسفة على الإطلاق ..!!

ولهذا يظن سارتر إنه ينقذ حرية الإنسان من الجبرية . وهو لهذا يصف مذهبه ، أى الوجودية :
" باتها مذهب تفاؤل لأنها تضع مصير الإنسان بين يديه " فتجعل حياة الإنسان ممكنة ^{٨٧} "

كما يعنى سارتر بفكرته عن " النبذ " بأنه ليس هناك ثمة " رب " وضع قيما أو مثلا عليا للبشرية على الإنسان أن يسعى إلى بلوغها ، وإنما على الإنسان أن يخترع قيمه الخاصة ، وهو يوجد وجودا أصيلا (Authentic) بمقدار ما يسعى إلى تحقيق قيمه الخاصة . ولكن ليس كما قال ديستوفسكى ، إذا لم يكن هناك رب فكل شيء مباح للإنسان . فكرة المسؤولية لدى سارتر هي التي تؤدي إلى ممارسة الضبط (أى ضبط النفس) والتحكم ، وكذلك مصدر الألم الذى مبعثه الاختيار . وعموما فإن رفض الأخلاق المتعارف عليها هي سمة يتسم بها الوجوديون جميعا ، بمن فيهم من بعض الوجوديين المسيحيين ^{٨٨} . ويرى سارتر ، ومعه الوجوديون ، بأن الإنسان " ملقى به " أو مطروح فى " الهم " ، فهو موجود يتسم بالهم والزمانية ، وهو فى النهاية متروك للموت ، بحيث يتوقف إحساسه باللاتناهى عند حدود تناهيه الجذرى وهي موته . وبهذا يمكن أن نحكم على الوجود البشرى بأنه عبث بصفة أساسية . ولكن جون مكورى ^{٨٩} يقول ، بأنه لم يصل أحد من الوجوديين ، حتى أشدهم تطرفا ، فيما يبدو إلى نظرية عدمية أو عبث بشكل مطبق (وهو يقصد بذلك أنهم يتحركون فى إطار العبث النسبى) .

ثم تأتى " اللحظة الحاسمة " لسارتر — كما يسميها هيديجر — وهي " لحظة مواجهة الموت " ، فيفزع ذلك الفيلسوف التائه الضال كأمثاله !!.. ونراه يتراجع عن كل فلسفاته ، ويطلب سارتر قبل موته من رفيقة حياته " سيمون دى بوفوار " أن تأتى له بقس ، ورغم دهشتها الشديدة ، واستنكارها لموقف سارتر إلا أنها جاءت له بالقس !!.. — كما سبق وأن ذكرنا — واعترف له سارتر بهزيمته أمام الموت .. أملا فى النجاة !!.. ولكن أى نجاة هذه !!..

^{٨٧} " تاريخ الفلسفة الحديثة " يوسف كرم ، دار المعارف . ص : ٤٥٧ .

^{٨٨} " الوجودية " ؛ جون ماكورى ، ترجمة د. إمام عبد الفتاح ، مراجعة د. فؤاد زكريا . دار الثقافة للنشر والتوزيع . ص : ٢٩٩ وما بعدها .

^{٨٩} المرجع السابق ، ص : ٣١١ .

٣ . ٥ . ٣ . الفلسفة اللغوية (Linguistic Philosophy)

ومؤسسها لودفيج فيتجنشتاين : Ludwig Wittgenstein (١٨٨٩ - ١٩٥١) ، وتمثل أهم مبادئها في أن الفلسفة عبارة عن نشاط (Activity) وليس محتوى حقيقي ، بل أن اهتمامها هو إهتمام لغوي مبنى على مبدأ التحقق (Verifiability Principle) . فاللغة هي وسيلة معرفة العالم والأشياء الموجوده فيه ، وهذا يتطلب معرفة كيفية استعمال الكلمة في الجملة . والفلسفة هي مجرد تحليل لغوي . ويقول فيتجنشتاين أنه من الخطأ أن نتساءل عن معنى الكلمة ، بل يجب أن نعرف كيف نستعملها ؟ لذلك لا يجب أن نتساءل عن معنى مطرقة أو شاكوش أو منشار .. إلى آخره ، ولكن علينا أن نتساءل عن وظائف هذه الكلمات التي تختلف باختلاف الأداة . وهكذا أراد فيتجنشتاين أن يؤسس منهجا في المعرفة عن طريق استعمال اللغة ، باعتبار أن اللغة هي عجلة الفكر . ويقول بأن هدف الفلسفة هي أن تضع كل شيء أمامنا ولا تقسره ، فمادام كل شيء واضح فهو لا يحتاج إلى شرح .

وقد أنكرت الفلسفة اللغوية كل بحث لا يستند على تفكير علمي ، ورفضت البحث في المسائل الميتافيزيقية مثل الكون وقيم الإنسان ومبادئه الثابتة وأصله ومصيره ، واعتبرت أن هذه قضايا غير ذات معنى مادام الإنسان ليس بإمكانه إيضاحها أو برهنتها .

ولقد تأثر فلاسفة أكسفورد بفلسفة فيتجنشتاين ومنهجه ، أمثال جلبرت رايل (Gilbert Ryle) ، وجون أوستين (John Austin) ونويل سميث (Nowell Smith) ، وكانوا قد اجتمعوا في ندوة قرب باريس وجمعوا أعمالهم في مجلد بعنوان " الفلسفة التحليلية " ، وركزوا فيها على دور اللغة وأهمية التحليل اللغوي . وكان اهتمامهم الرئيسي مركزا على الكلمات والنظم والعبارات ، والوظائف المختلفة لأنواع التعبيرات ، هادفين بذلك إلى تفحص اللغة كلفة لحل المشكلات الفلسفية .

٣ . ٥ . ٤ . الفلسفة الوضعية المنطقية (Logical Positivism)

هي واحدة من المدارس الفلسفية التي ظهرت في القرن العشرين أسسها موريس شليك عام ١٩٢٩م ، ويرجع مصطلح الوضعية (Positivism) إلى أوجيست كونت : Auguste Comte (١٧٩٨ - ١٨٥٧) ، في أثناء سعيه لتأسيس علم الاجتماع كعلم مستقل وفصله

٩٠ سبق التكلم عنه بالتفصيل ؛ في الفصل الأول - فقرة ١ من هذا الكتاب .

عن الفلسفة . وهذه الفلسفة تهدف إلى تغيير الفكر الفلسفي من تفكير ميتافيزيقي إلى تفكير علمي متأثرة في ذلك بالمنهج الحسي وفلاسفته أمثال بيكون ، وبيركلي ، ولوك ، وهيوم حيث تستند على التجربة الحسية . وأهم فلاسفة هذه الفلسفة هو الفيلسوف الإنجليزي ألفريد جولز آير : **Alfred Jules Ayer** (١٩١٠ - ١٩٨٩ م) . ونادى آير بالقضاء على التفكير الميتافيزيقي ، وقال بأن الفيلسوف الميتافيزيقي هو شاعر يتحدث بكلام فارغ . ولهذا نجد آير يعترض على المنهج الاستنباطي الذي هو من خصائص التفكير الميتافيزيقي لأنه يسند المعرفة إلى مبادئ أو فروض أولية لا تمدنا بالمعرفة الأكيدة . وقال آير بأن هذه المبادئ ما هي إلا فروض بحاجة إلى تبرير . وبذلك تصبح كل محاولة للمعرفة من خلال المنهج الاستنباطي هي محاولة فاشلة .

وقد عُرفَ " آير " بمبدأ التحقيق : **Verification Principle** " في اللغة والحق والمنطق ، بمعنى أن أي جملة لها معنى فقط إذا كان لها تحقيق عملي تستمد منه معناها ، كما وأن أي فرض يجب أن يتلاءم مع تجربة ما ليستمد منه صحته ، لذلك يجب أن لا نستنتج الأحداث من المبادئ الأولية إستباطيا (أي بالبراهين العقلية) بل إستقرائيا (أي بالتجربة) . كما قال بأن " اللغة الدينية " غير قابلة للتحقيق وبالتالي لا قيمة لها ، وبالتالي فجملة " الله موجود " تتساوى مع جملة " الله غير موجود " ولهذا كان آير ملحدا ..!! ولكن ؛ في جميع الأحوال لم يستطع آير أن يقدم برهان قاطع على أن " الله غير موجود " .

وقد أشار آير إلى أن ديفيد هيوم قال بأنه ليس هناك حادثة تشير إلى أخرى ، ولهذا اعتبر آير بأن الفرض الذي قال به ديكارت " أنا أفكر فأنا موجود : **Cogeto ergo sum** " هو فرض خاطيء ، لأنه يمثل أحداثا مستقلة (بمعنى أن التفكير حدث مستقل ، والوجود حدث مستقل. ولا علاقة بينهما) ، ولهذا " أنا أفكر " ليس من الضروري أن يتبعها " أنا موجود " .

وهكذا ؛ نادى الوضعية المنطقية بأن كل شيء لا يخضع للتجربة والتحليل .. غير معترف به بما فيه الإنسان لأنها تصبح قضايا خالية من المعنى . كما رفضت الوضعية المنطقية جميع الأسئلة الفلسفية المتعلقة بالميتافيزيقيا ، لأن اهتمامها بالتحليل المنطقي فقط . وأكدت الوضعية المنطقية على الاتجاه العلمي ووحدة العلم .

٣ . ٥ . ٥ . الفلسفة البراجماتية (Pragmatism) أو " فلسفة الذرائع "

البراجماتية مصطلح مشتق من الكلمة اليونانية **Mpayua** وتعني **action** أى فعل ، ومنها جاءت فلسفة البراجماتية أو الفلسفة العملية أو الأداة . وتعتبر هذه الفلسفة أول إسهام فكري أمريكي فى الفلسفة الغربية . وتسمى هذه الفلسفة أيضا بإسم " فلسفة الذرائع " ، أى الفلسفة التى تتخذ من النتائج العملية مقياسا لتحديد قيمة الأفكار الفلسفية ومدى صدقها . وقد وضعت هذه الفلسفة العمل فوق العقيدة ، والخبرة فوق المبادئ الثابتة ، واتخذت من النتائج العملية مقياسا لتحديد قيمة الأفكار وصدقها .

والفلاسفة الثلاثة اللذين أسسوا الفلسفة البراجماتية هم : شارلز س. بيرس : **Charles S. Peirce** (١٨٣٩ - ١٩١٤) ، وهو يعتبر مؤسس الفلسفة البراجماتية وواحد مصطلحها . و **وليم جيمس : William James** (١٨٤٢ - ١٩١٠) ، و **جون ديوى : Jhon Dewey** (١٨٥٩ - ١٩٥٢) .

والبراجماتية هى فلسفة معاصرة تتفق مع الماركسية فى أنها ربطت الفلسفة بالحياة والمجتمع وأرادت من الفلسفة أن تكون أداة لتغيير المجتمع . إلا أن الاختلاف بينهما هو أن الماركسية تمثل مجتمعا إشتراكيا يسعى إلى الشيوعية فى نهاية مرحلة ، بينما تمثل البراجماتية مجتمعا رأسماليا يسعى إلى المزيد من الرأسمالية .

ويوضح لنا بيرس - مؤسس البراجماتية - معناها : بأنها الإتجاه الذى يجعل من معرفة معنى القضية (أى قضية) هو معرفة ما يترتب عليها من آثار وسلوك (لاحظ التقارب الفكرى بين هذه الفلسفة وبين الفلسفة اللغوية . ففى الفلسفة اللغوية لا يتم البحث عن معنى الكلمات ، بل يتم البحث فى وظائف تلك الكلمات وما تؤديه من معنى / أى هم يدورون فى دائرة مفرغة) . فمثلا نحن نجعل حقيقة الكهرباء ، ولكن جهلنا يزول إذا ما عرفنا آثارها ^{٩١} ، أى ما تؤديه لنا من أغراض عملية ومنافع (لاحظ مفهوم فكر الأداء والمنفعة هنا ، أى فكر الفلسفة الأداة ، وهو إسم الفلسفة ذاتها) . وتبعاً لذلك فإننا إذا أردنا أن نوضح أية فكرة من أفكارنا ، فما علينا سوى أن ننظر إلى الآثار العملية التى تتولد من هذه الفكرة ، والإحساسات المباشرة وغير المباشرة التى تترتب عليها ، وكذا ردود الأفعال التى يجب أن نعمل حسابا لها . وبهذا المعنى يكون معنى الفكرة هو تصور النتائج العملية المترتبة عليها .

^{٩١} لاحظ هنا ، أنه بدلا من الإعتراف بالجهل ، قاموا بالتظاهر بالمعرفة .

وقد رفض ديوى القول بأن هدف الفلسفة هو البحث عن الحقيقة المجردة بصرف النظر عن الزمان والمكان ، بل الحقيقة يجب أن ترتبط بالمنفعة في دنيا العمل .

بمعنى أن الحقيقة تبدو حقيقة فعلا إذا ما حققت منفعة في دنيا العمل^{٩٢} . بل ورأى ديوى أن الفلسفة كالسياسة والأدب والفنون ، إحدى ظواهر الحضارة الإنسانية ، وتتصل إتصالا وثيقا بالتاريخ . فالفيلسوف — كالأديب والفنان والسياسي — يتأثر بمشكلات زمانه ، ويعبر عن التغييرات المتتابة في الحضارة ويهدف إلى وضع قيم جديدة . ولم يقتصر فكر ديوى بالربط بين الفلسفة والحضارة ، بل انتهى في أواخر أيامه — كما فعل افلاطون — إلى أن البحث في الخير والقيم هو صميم الفلسفة .

هذا وقد إعتمدت البراجماتية في تحديدها لوظيفة الفلسفة على كتاب وليم جيمس (مبادئ علم النفس) ، الذى حاول فيه أن يجعل المنهاج العلمى وسيلة لدراسة الموضوعات الإنسانية ، مما أدى إلى تغيير بعض المفاهيم (كالشعور والذكاء) ، والتي كانت تعرف تعريفا تأمليا مجردا .

وعموما فقد إهتمت الفلسفة البراجماتية بالحقائق الواقعية العادية بدلا من الحقائق المجردة ، التي كانت تهتم بها الفلسفات القديمة . واستخدمت المناهج التجريبية بدلا من المناهج التأملية . وبذلك جعلت الفلسفة كالعلم وسيلة للتوجيه في عالمنا الذى نعيش فيه . وعلى الفلسفة أن تعمل على رقية وتحسينه وتجميله وتأمينه . وبديهى أن فكرا كهذا لم يقدم شيئا يذكر عن الإنسان ، من ناحية وجوده ومصيره ، وكذا الغايات من خلقه ، كما لم يقدم هذا الفكر أى تصور ممكن عن الله .. سبحانه وتعالى .

٣ . ٥ . ٦ . الفلسفة التحليلية (Analytical Philosophy) :

وهى فلسفة ليس لها تعريف دقيق ولكنها تتميز بالخصائص الأربعة التالية : (١) اعترافها بدور اللغة الفعال فى الفلسفة . (٢) الاتجاه إلى تقنين المشكلات الفلسفية إلى أجزاء صغيرة ومعالجتها جزءا جزءا . (٣) الكشف عن حقيقة العالم الخارجى من أجل اكتساب المعرفة ، مع

^{٩٢} وبديهى يمثل هذا المبدأ خروج هذه الفلسفة عن الأخلاق إذا ما تناقضت المنفعة معها ، أو بمعنى آخر أنه لن توجد قوانين أخلاقية مطلقة خارج المنفعة . وبهذا المعنى تصيح الجريمة — إن صح القول — قانونية ومشروعة ، طالما أن الجريمة تكتسب مشروعيتها من المنفعة . راجع كذلك بند (١١ . ٧ — البرهان الأخلاقى) من الفصل الثامن من هذا الكتاب .

التمسك بمعتقدات المذهب العقلي . (٤) المعالجة البين ذاتية (Intersubjective) لعملية التحليل ، وهو ما يعنى استخدام نوعا من التحليل له معنى مشترك بين الذات .

ويعتبر برتراند رسل أحد رواد هذه الفلسفة . وفى الواقع ؛ لا يمثل الفلاسفة التحليليين نمطا واحدا من الفلاسفة يتفقون على دوافع تفكيرهم وأهدافه ، بل لا يوجد أيضا اتفاق عام حتى على الاسم الذى يميز حركتهم الفلسفية ، ولهذا تسمى فلسفتهم حيننا باسم " التحليل اللغوى " ، وأحيانا باسم " التحليل المنطقى " .

وبلى هنا ينتهى سرد الفكر الفلسفى منذ فجر الحضارة البشرية وحتى وقتنا المعاصر . ولننظر الآن لنرى — عن قرب — ماذا قدمت هذه الفلسفات للإنسان من فكر ..؟! .

٤ . ثم ماذا قدمت الفلسفة للفكر البشرى بعد آلاف السنين ..؟! .

والآن وبعد استعراضنا للفكر الفلسفى للإنسان على مر تاريخه وحضاراته ، أى منذ بدء الفلسفة اليونانية القديمة وحتى الفلسفات المعاصرة ، أن لنا أن نسأل أنفسنا ، كما نسأل الفلاسفة أيضا بعد هذا العرض السابق ، السؤال التالى : وماذا قدمت لنا الفلسفات من فكر إيجابى عن حقيقة وجود الإنسان والغايات من خلقه ، وعن حقيقة وجود الله وصفاته ..؟! .

فكما رأينا أن الفلسفة فى جميع العصور كانت تدور حول تحديد : " نظرية المعرفة : Epistemology " أو (Theory of Knowledge) ، ولكن بتباينات شتى وظهورات مختلفة ، أملا فى أن تقود هذه النظرية إلى سعادة الإنسان ومعرفة وجوده ومصيره والغايات من خلقه . وأملا فى أن تقود هذه النظرية .. إلى معرفة شئ ما عن " الله " (ﷻ) خالق هذا الوجود ، وشئ ما عن صفات هذه الذات ..!! وتتبدد أحلام الإنسان وآماله فى الوصول إلى معرفة أى شئ ..!! لأن الإنسان لم يبدأ إلا بنفسه .. وبذلك لم ينته إلا بنفسه فى هذه الفلسفات ..!!

وقد رأينا أن هذه الفلسفات — والنظم الوضعية التى اتبعت منها أو عنها — لم تؤد إلى معرفة ما : عن سعادة الإنسان ووجوده ومصيره ، كما لم تؤد هذه الفلسفات إلى معرفة ما : عن الغايات من خلقه ، كما لم تؤد إلى معرفة ما : عن الله وعن كماله أو صفاته الإلهية المطلقة . هذا باستثناء ما توصل إليه الفلاسفة من إدراك للفطرة أو المعرفة الفطرية ، وهى المعرفة التى ركبها الله فى الإنسان بنوعها ، أى فطرتى التدين وإدراك وجود الإله (أى رغبة

الإنسان في اعتناق ديانة ما بلا تحديدية ، وإدراك وجود الله وما ينبغي أن تكون عليه من كمالات ولكن بلا تحديدية أيضا) ، وهذه المعارف لا تحتاج لإدراكها إلى أي نوع من أنواع الفلسفة ، حيث أنها معارف فطرية مركبة في كل الناس .

وهكذا ؛ فشلت الفلسفات المختلفة قديما وحديثا في تقديم البدائل للإنسان للدين والتدين ، كما فشلت الديانتين اليهودية والمسيحية في احتواء الفكر البشري . وهكذا انتهى الأمر بالإنسان إلى اعتناق أحد من الاتجاهات أو المذاهب الفكرية التالية :

[١] اللأدرية (Agnosticism) : وهو المذهب الذي يقول بأن إقامة الدليل أو البرهان على وجود الله مستحيل ، وإن لم ينف إمكانية وجود الله . وهناك تعريف آخر لهذا المذهب ؛ وهو الذي يقول بأن وجود الله وأصل الكون هي من الأمور التي لا سبيل إلى معرفتها ، أو من المستحيل معرفتها .

وربما كان هذا المذهب ، يمثل الاعتراف الصريح بفشل الفلسفات في الوصول إلى نتائج حاسمة أو حتى فكر معقول يمكن أن يُعوّل عليه في البرهنة على وجود الله ، ومعرفة الغايات من خلق الإنسان . كما يبين هذا المذهب أيضا عدم قدرة الإنسان في الخوض في المسائل الدينية أو الإلهية بصفة عامة ، معتمدا في ذلك على ذاته فقط .

[٢] العلمانية (Secularism) : وهو الاتجاه الفكري الثاني ، وهو — في الواقع — فكر متغير ، فمعناه يتغير مع الزمن ، فقد ظل على ما يزيد على قرن من الزمان يعرض بمفهوم شغل الفكر بمسائل العالم المادية فقط ، ثم تغير هذا المعنى بعد ذلك إلى الفكر المضاد للإيمان بالدين ، أو بمعنى أدق هو فكر يرفض التربية الدينية ، في جميع المراحل التعليمية . حيث يرى هذا الفكر أن " الله قد انسحب من هذا العالم ...!! "

[٣] الإلحاد (Atheism) : وهو الاتجاه الفكري الثالث والأخير ، وهو مذهب لا يعتقد أتباعه في وجود " الله " ، أو هم ينكرون الله على نحو مطلق .

وهذا هو منتهى علم الإنسان .. وهذا هو منتهى فكره .. بعد أن أوصدت الديانات الوثنية الطريق أمامه (وعلى رأسها اليهودية والمسيحية) ، في التعرف على نفسه والتعرف على

خالقه .. وبعد أن فشلت الفلسفات الوضعية في أن تحتويه ، أو أن تقوده إلى أي طريق للهداية !!..

لهذا كان التدخل الإلهي – من خلال الوحي – ضرورة تحتّمها العلة الغائية من وجود وخلق الإنسان . وذلك ؛ حتى يستكمل الله (ﷻ) جوانب نقص المعرفة لدى الإنسان ، في الأمور التي لا يمكنه الخوض فيها ، معتمدا في ذلك على ذاته وفكره فقط .

وأود أن أؤكد – هنا – على الآتي : فليس معنى أن الإنسان غير مؤهل لاستنتاج الأمور والمقاصد والغايات الإلهية ، أن يكون غير مؤهل للحكم عليها وعلى مدى صحتها وصدقها من الناحية المنطقية إذا ما عرضت عليه . لا !!.. ففي الواقع ، أن الحكم على صحة هذه الأمور ، قد قضى الله (ﷻ) أن يضعها في نطاق قدرة الإنسان . أي أن حكمة الله (ﷻ) قد قضت بأن تضع البراهين الدالة على صحة وصدق هذه الأمور في حيز المنطق الفكري أو الحيز العقلي لدى الإنسان . أي في حيز الملكات العادية التي يمتلكها الإنسان ؛ وإلا خرجت هذه الأمور كلها من مناهج التكليف والابتلاء (أي الإختبار) والمساءلة الإنسانية ، بل ويمكن أن تكون حجة لنا نقيمتها يوم القيامة – أمام الله .. وحاشا ذلك – لتبرير عدم اهتدائنا إلى المعرفة الحققة له (ﷻ) وكذا الغايات من خلقنا . ولهذا ينبهنا المولى (ﷻ) بقوله تعالى :

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ... ﴾ (٢٨٦)

(القرآن المجيد : البقرة {٢} : ٢٨٦)

ومعنى لها ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ أي لها ما كسبت من الخير ، وعليها ما اكتسبت من الشر .. أي وزره ولا يؤاخذ أحد بذنب أحد . ويتأكد هذا المعنى – أيضا – في قوله تعالى :

﴿ وَلَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٦٢)

(القرآن المجيد : المؤمنون {٢٣} : ٦٢)

وهو ما يؤكد أن جميع أمور الحكم على المقاصد الإلهية ، والغايات من خلق الإنسان في متناول الحكم والقدرة الفكرية للإنسان .

٥ . ونظرات حول الفكر الفلسفى والفكر الإلهى ..

وننتهي من العرض السابق إلى أن الفلسفة — فى أحسن احوالها — لم تقدم للدين إلا ما تقدمه التجربة المعملية ذات الدلالة المحدودة ، لبيان جزئية صغيرة ذات معنى ضيق ومحدود من طيف عريض من المعانى والمفاهيم العامة التى تنتبأ بها إحدى النظريات العلمية العامة ذات المضامين الشاملة والفكر المحيط . ويدهى لا توجد تجربة بدون نظرية ، ولكن قد توجد النظرية بدون التجربة . لذلك فإن الدين (النظرية) ليس فى حاحه إلى الفلسفة ، بينما الفلسفة لا يمكنها الاستغناء عن الدين لاستكمال المعانى التى تحاول الوصول إليها . فالفلسفة — فى الواقع — تمثل المحاولة المتواضعة التى يبذلها الإنسان فى محاولة منه لإسباغ المعنى المعقول على وجوده ، ومعنى مصيره إن وجد !!..

ولو توخينا الدقة فإنه يمكن تعريف الفلسفة من وجهة النظر الدينية : بأنها المساعى الحميدة — التى لا تقدم شيئاً سوى الفطرة النقية وبعض التأكيدات الثابوتية — التى يبذلها الإنسان من جانبها فى محاولة معرفة معنى لوجوده ومصيره إن أمكن .

ولكن فى كل الأحوال ينبغى أن أؤكد على دور الفلسفة الهام فى السياسة والأخلاق والإجتماع ونتائجها الإيجابية فى هذا الشأن ، وذلك فى حالة غياب الدين الصحيح . وكذا المساهمة الإيجابية والحقيقية — للفلسفة — فى مجال تقدم الحضارة البشرية على مر العصور المختلفة ، وذلك فى غياب الدين الصحيح أيضاً . وكذا دور الفلاسفة المعاصرين فى الدعوة للسلام العالمى فى الوقت الحالى . ولكن ما أعنيه هنا بهذا التعريف السابق هو دور الفلسفة وما أحرزته فى مجال معرفة الإنسان لوجوده ومصيره فى هذا الوجود ، وهما موضوع الكتاب .

والكاتب يعتقد أن الفلسفة تمثل الضمير الإنسانى ، أو الفطرة البشرية ، فى حالة غياب الدين الصحيح . أما فى حالة وجود الدين الصحيح ، ومنهاجه وقياسه العلمى الكلى ، فلا مكان ولا دور للفلسفة بمفهومها الحالى . فهى قاصرة عن تقديم أى شيء ذى نفع حقيقى لا من جانب الوجود ، ولا من جانب المصير ، ولا من الجانب الخاص بفكر الخالق وغاياته من الخلق . كما وإن الجانب الأخلاقى فى الفلسفة هو عادة فكر غير قياسى وناقص أو بمعنى آخر هو فكر قاصر بدرجة واضحة وملحوظة ، لأن هذا يستلزم الإحاطة الكاملة والدقيقة بالفكر البشرى وطبيعة الإنسان ، وهذا لا يتأتى إلا من خلال الدين الصحيح .

وعموماً لم تؤد الفلسفة - حتى الآن - بالإنسان إلا إلى " الشعور بالإغتراب " ، وهي تسمية يتبناها فلاسفة اليوم ، ولا تعنى أكثر من " الشعور بالضيق " . وهو الشعور الذى يمر به إنسان اليوم والذى يوحى معناه ، بأن الإنسان يكاد يصبح شيئاً - تافهاً - من بين أشياء أخرى فى هذا الكون ، وبهذا يكاد يفقد الإنسان معنى وجوده على نحو مطلق .

ففى الواقع ؛ إن الفكر الفلسفى منذ نشأته وحتى الآن - إذا ما استثنينا بعض النظم الوضعية والبحث عن السعادة - يمكننا القول بأن الفكر الفلسفى يدور فى فلك الصراع بين المعرفة العقلية (والتي يطلق عليها المعرفة الميتافيزيقية) ^{٩٣} ، وبين المعرفة الحسية (والتي يطلق عليها المعرفة العلمية) ^{٩٤} . ويقف الفلاسفة الآن - وكل متشيع لرأية - ليتساءلوا .. هل تأتى لنا المعرفة بطريق : العقل وبمنهاج عقلى (Rationalism) ، أم بطريق الحس وبمنهاج حسى (Empiricism) ؟ أم إنها تأتى لنا : بالحدس (Intuition) أم بالتجربة (Experience) ؟ أم إنها (أى المعرفة) تأتى لنا : من خلال الروح (Spirit) أم من خلال المادة (Matter) ؟

وما الفلسفات الأمامية الكاتبية (Kantianism) والهيكلية (Hegelianism) ، من جانب ، والماركسية (Marxism) من جانب آخر ، إلا تعبير عن هذين الاتجاهين الفكرين (العقل والحس) وصراعهما بنحو ما .. أو آخر . وقد تطور هذا الصراع فى الفلسفة المعاصرة ، وظهرت المناهج الفلسفية المتضادة ، كالفلسفة الظاهرات (Phenomenology) ، والفلسفة الوجودية (Existentialism) ، وهى فلسفات أقرب فى اتجاهها إلى التفكير الميتافيزيقى (أى المعرفة بالعقل) . بينما ظهرت الفلسفة التحليلية (Analytic) ، والفلسفة الوضعية (Positivism) ، والفلسفة اللغوية (Linguistic) فى أوروبا ، والفلسفة البراجماتية (Pragmatism) فى أمريكا ، معبرة عن التفكير العلمى (أى المعرفة بالحواس).

وما هذه الفلسفات العديدة ومناهجها ، إلا تعبير عن استمرارية الجدل بين الفكر الميتافيزيقى ، والفكر العلمى ؛ أو الجدل بين الفكر العقلى والفكر الحسى . وما زال الفلاسفة يعتقدون فى أن

^{٩٣} التفكير الميتافيزيقى أو المعرفة بالعقل : هى التفكير أو المعرفة التي تبدأ بالذات والتجربة العقلية من حدس (Intuition) وتأمل وإعتماد على البديهيات .

^{٩٤} التفكير العلمى أو المعرفة بالحواس : هى التفكير أو المعرفة التي تبدأ بالعالم الخارجى ، والتجربة الموضوعية من حسابات ومختبرات وإثباتات علمية .

التفكير الفلسفى هو طريقة بحث ومنهاج للوصول إلى معرفة الحقيقة ٩٥ المطلقة . وهذا يعنى أن الفلاسفة لم تكفهم ثلاثة آلاف سنة (أى منذ نشأة الفكر الفلسفى وحتى الآن) من المحاولات العبيثية الفاشلة ، ومن إضاعة الوقت فيما لا يفيد ، حتى يفوقوا أو يتنبهوا إلى أن هذه الإتجاهات الفكرية والجدل لن يقودهم إلى معرفة ما عن الإنسان أو الخالق !!.. بل ومازلنا نراهم مستمرين فى المناقشات السوفسطائية التى لا جدوى منها ولا طائل من ورائها !!..

وينبها الله — عز وجل — وهو أعلم بنا منا ، إلى أنه خلق الإنسان محب للجدل ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ (٥٤)

(القرآن المجيد : الكهف {١٨} : ٥٤)

كما ينبها المولى (ﷻ) إلى أن كل المناهج الوضعية ، لن تقود الإنسان إلى شىء ما ، وها هي الفلسفة ، كما سنعرضها ، لم تقدم للإنسان شيئا !!.. فإلى أين يذهب الإنسان إذن ؟ وقد أوشك أن يعتريه اليأس ، ويتملكه الضياع ، ويملا نفسه الشعور بالإعتراب !!.. وتكون الإجابة بأنه لن يكون هناك للإنسان خيار إلا إلى الذهاب إلى المنهاج الإلهى لمن أراد الهداية ..

﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) ﴾

(القرآن المجيد : التكويد {٨١} : ٢٦ - ٢٨)

وإذا ما أصر الإنسان على الاستكبار والبعد .. ينبهه المولى — عز وجل — بقوله تعالى :

﴿ ... فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧) ﴾

(القرآن المجيد : طه {٢٠} : ١٢٣ - ١٢٧)

٩٥ * المرجع فى الفكر الفلسفى : نحو فلسفة توازن بين التفكير المتألفيزيقي والتفكير العلمى ؛ الدكتور نوال الصراف الصليغ . دار الفكر العربى . ص : ٢٦ / ٢٧ .

إذن .. لا ملجأ للإنسان إلا إلى الله .. وتعود دورة الحياة (**The Circle of life**) إلى التكرار ليعيد الإنسان نفسه .. وليقف إنسان مشارف القرن الواحد والعشرين ، نفس موقف كعب بن مالك ، وهلال ابن أمية ، ومرارة بن ربيعة (الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ) منذ أكثر من أربعة عشر قرناً .. فى قوله تعالى :

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَقُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) ﴾
(القرآن المجيد : التوبة { ٩ } : ١١٨)

فهذه هى الحقيقة المطلقة التى يجب أن يتنبه لها الإنسان ، وهى أن : ﴿ .. لَأَ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ .. ﴾ ثم بأى شىء يعتصم الإنسان .. بعلمه القليل .. أم بحواسه المحدودة .. أم بعقله القاصر .. أم أنه يعتصم بلا شىء ..!! وتعود دورة الحياة (**The Circle of life**) لتتكرر ، ويكرر الإنسان نفسه .. ويبين لنا المولى (ﷺ) فى قوله تعالى عن ابن نوح (عليه السلام) ، عندما ناداه نوح — عليه السلام — من السفينة أثناء الطوفان ..

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَاوِي إِلَى جِبَلٍ يَغْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) ﴾

(القرآن المجيد : هود { ١١ } : ٤٢ - ٤٣)

وليت الإنسان يتنبه إلى قوله تعالى ﴿ ... لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ٩٦ ﴾ . ويجب أن أشير هنا إلى أن الإنسان فى رحلته الفكرية ، لم

٩٦ وتتجلى الرحمة الإلهية بنوح عليه السلام ، فى قوله تعالى ﴿ ... وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ ، فلم يشأ الله (سبحانه وتعالى) ، أن يجعل نوحاً يرى بعينه غرق ابنه الكافر .. رحمة منه بنوح الأب . وهنا يتضرع نوح إلى الله ..

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) ﴾
(القرآن المجيد : هود { ١١ } : ٤٥ - ٤٦)

يستطع أن يفصل عن " الله " بدون أن يدري .. فرحلة سعية في هذه الحياة لم تتجاوز في معناها العميق إلا البحث عن الحقيقة .. وما الحقيقة التي يبغها الإنسان إلا " الله " سبحانه تعالى .. وليس هذا تفكيراً ميتافيزيقياً أو تفكيراً علمياً .. بل هذا تفكير متكامل شديد البساطة ، لإنسان يملك من الحواس والعقل والمعرفة الفطرية ، ما يكفي لإدراك الحقيقة . إنسان يملك كلا من الجانب المادى والجانب الروحي معا ، إنسان قد قضى الله - سبحانه وتعالى - له :

[بأن يكون (أي الإنسان) جزئية روحية في الجوهر ، منحته - هذه الجزئية - حرية ومسئولية وكاملاً إنسانياً بقدر ، وكذا إدراكاً ووعياً ومعرفة فطرية بقدر ، وأصبح بموجب هذه الجزئية الروحية الحدود المشتركة (The Common Boundaries) لملتقى عدة عوالم مختلفة أو أكوان متطابقة يخضع ظهوره فيها إلى قوانين سرمدية " فيزيقية/ميتافيزيقية " معا ، تبدأ من عالم الشهادة أو العالم الفيزيائي وتنتهي بعالم الغيب ، وتتوقف مكاتته في ظهوراته المختلفة في الأكوان الأخرى على عمله وحركته في كوننا هذا] ٩٧

والمقصود بعالم الغيب هو عالم الأكوان المتطابقة الأخرى / غير كوننا هذا ، ويتم كل هذا بلا أدنى توضيحات عقلية أو فكرية أو تسلسل منطقي يفقد للقضية معناها أو يفسد مغزاها . والدلائل الدالة على صدق هذه القوانين ، تتعدد وتتنوع حتى تترك الإنسان في رؤية كلية كاملة متكاملة ، أو رؤية مستيقنة تحيط به وتغلفه من كل جانب ، كما يسطع نورها في كل جوارحه .

وهنا يتنبه نوح - عليه السلام - إلى أن الكفر حال بينه وبين ابنه .. فيعود ليقول لربه ..

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَرَحْمَتِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) ﴾
(القرآن المجيد : هود : { ١١ } : ٤٧)

وتتجلى القوانين السرمدية والسنن الكونية التي تجرى علينا - نحن البشر - لتحقيق الغايات من خلقنا .. حيث نتحسسها في قول نوح - عليه السلام - الله .. ﴿ ... إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ... ﴾ .. ولم ولن ندرك ما ندرك إلا بالله ..

٩٧ تعتبر هذه الصياغة أحد التعريفات الخاصة بالإنسان . وهو تعريف مستمد مباشرة من واقع الفكر القرآني . وسوف يتم إلقاء مزيد من الضوء على هذا التعريف ، في كتابات تالية ، إن شاء الله ، وذلك عند مناقشة حقيقة وجود الإنسان ومصيره [انظر : " الدين والعلم ... وقصور الفكر البشري " لنفس مؤلف هذا الكتاب] .

ولم يتنبه هذا الإنسان المستعمى أنه — بموجب هذه الحرية الممنوحة له — هو الذى يغمض عينيه حتى لا يرى حقيقة وجوده ومصيره !!.. كما لم يتنبه هذا الإنسان المدعى الصمم أنه — بموجب هذه الحرية الممنوحة له — هو الذى يضع أصابعه فى أذنيه ويصم أذنيه حتى لا يسمع كلمة الهداية لما يحييه الحياة المأمولة !!.. وعليه أن يتحمل توابع هذه المسئولية !!.. وتؤكد المسئولية الملقاه على عاتق الإنسان صراحة فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) ﴾

(القرآن المجيد : الأحزاب {٣٣} : ٧٢)

[الأمانة : هى الخلافة الإلهية ، والحرية فى الفعل ، وقبول التكليف / فابين : امتنع / أشفقن : خفف من الخيانة فيها]

أى أن الإنسان قد قبل بالخلافة الإلهية (على وجه عام) ، وقبل التكليف بأوامر الله ونواهيه ، كما قبل بالحرية فى اختيار الفعل . ولكنه كان ظلوماً لنفسه لأنه لم يول هذه القضية الفكرية العناية الكافية ، وكان جهولاً لأنه لم يقبل بالتعلم وبالهداية ، وبالعون الإلهى الممدود إليه ... على مدار حياته .

ومن الغريب حقاً ؛ أن يعرض الإنسان عن المعرفة الحقة المقدمة إليه من الله مباشرة !!.. تحت دعوى أنه مر بتجربة مريرة مع الأديان .. بينما نجده يجرى لاهثاً — يجد فى البحث عن الله بدون أن يدري — وراء زيف من المعانى يعتقد أنها سوف تقوده إلى الله .. ولن تقوده إليه !!.. يجرى لاهثاً وراء زيف من المعانى يعتقد بأنها سوف تقوده إلى حقيقة وجوده وحقيقة مصيره .. ولن تقوده إلى شئ .. ويكون هذا هو تصديقاً لقوله تعالى ﴿ ... إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣) ﴾

(القرآن المجيد : الأنعام {٦} : ١١٢ - ١١٣)

[لكل نبي : لكل رسالة من عند الله / شياطين الإنس : كل من يضع نظام وضعي يحارب به الدين ويصرف به الإنسان عن معرفة الله سبحانه وتعالى / زخرف القول : الأنظمة الوضعية والفلسفية التى

فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ، هكذا ﴿ ... سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا ... ﴾
أى بآيات الله ومعجزاته في أسلوب خلقه . فهل وعى الإنسان قوله تعالى .. ﴿ ... لَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .. أم لم يحن للإنسان بعد في أن يتفكر فيما يحيط به .. حتى يدرك حقيقة وجوده ..
وما سوف يؤول إليه مصيره !!..

فهذا هو الإنسان اللاهث وراء زيف من المعانى ﴿ .. زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا .. ﴾ التى
لا طائل من ورائها .. وهذا هو الإنسان التارك للمعرفة الكلية التى آتاه الله بها .. فى يسر
وبغير عناء ..!!! وهذا هو الإنسان الذى تصرخ كل ذرة من كيانه ووجوده بنداء خفى على الله
.. وهو لا يدرك ذلك ..!! ثم أدرك الإنسان .. معنى قوله تعالى .. نتيجة تخييب عقله وحواسه
.. ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا
يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾

فأين الفلسفات ؟ .. وأين الفلاسفة من هذا العلم اللدنى؟! .. وأين الإنسان ووجوده ؟ .. أم إنه
ما زال يقف مغمض العينين ، أصم الأذنين ..!! أدرك ذلك المغيب عقليا .. أنه لن يستطيع
أن يقود نفسه بنفسه إلى الله .. وإنه لن يستطيع أن يصل إلى الله إلا بالله ..!! إن الله يمد يد
العون إلى الإنسان ليأخذ بيديه .. فهل سيتنبه الإنسان إلى أنه ينبغي له أن يقبل هذا العون
الإلهى المقدم له ، وعليه أن يأخذ نفسه طواعية إلى الله .. أم سيظل يتخبط فى جهالاته .. وفى
ظلماته .. معتمدا فى ذلك على عقله القاصر وحواسه المحدودة .. التى لن تقوده إلى شىء من
بعد .. كما لم تقده إلى شىء من قبل ..!!!

ولكن على الإنسان أن ينتبه بأنه هو الخاسر الوحيد لنفسه فى هذا الوجود إن لم يتدارك
موقفه قبل أن يأتى إليه الموت الذى يترصده فى كل لحظة من لحظات حياته ، وفى كل حركة
من حركات وجوده ..!! ثم يجد نفسه لم يحقق الغايات من خلقه ..!! ألم يحن بعد لإنسان القرن
الواحد والعشرين أن يقف موقف صدق مع نفسه .. بدلا من أن يولول .. ويعلو صراخه إلى
عنان السماء ليقول لقد أحاط بى الاغتراب ، والضياغ من كل جانب ، ولم أعد أدرى من أنا ..
ومن أكون ..!!!

ثم تبقى كلمة أخيرة للإنسان ، عن مذاهبه الفكرية وما جاء بها على مر حضاراته . ونقول
له ، سواء أدرك هذا أم لم يدرك ، سواء استوعب هذا أم لم يستوعب ، ربما لأن هناك شوطا

من حال إلى أحوال ، وقد رأينا أحوالا محدودة منها في هذا الكون المادى .. وسنرى باقى الأحوال فيما بعد ..

ثم تأتى الكلمات الأربع الأخرى ، لتصف فطرية المعرفة فى النفس البشرية ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. (٣١) ﴾

(القرآن المجيد : البقرة {٢} : ٣١)

وأدم هنا تعنى الإنسان ، وهنا يخبرنا المولى (ﷺ) بأن المعرفة البشرية هى معرفة فطرية قد ركبها الله فى العقل الإنسانى . والآية السابقة تعنى " الحشد " ، أى حشد الكلمات فحسب ، أما العلاقات المنطقية بين هذا مفردات هذا الحشد ، فتأتى فى كلمتين فقط .. فى قوله تعالى ..

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) ﴾

(القرآن المجيد : الرحمن {٥٥} : ٣ - ٤)

وبهذا المعنى تكون المعرفة هى " معرفة عقلية " أو " معرفة ميتافيزيقية " (كما يحلو للفلاسفة تسميتها بهذا الاسم) ، وأن مصدرها الله ، سبحانه وتعالى ، وليست مصدرها الحواس (أنظر كذلك الملحق الرابع ، من هذا الكتاب ، لمزيد من التفاصيل) .

وبهذا يستطيع الإنسان العادى إدراك وجود الله بـ " الفطرة " ، كما يستطيع أدراك " فطرية المعرفة " لديه بالفطرة أيضا ، وليس هنا حاجة إلى فلسفة ما ، لإدراك هذه المعانى . فهذه هى الكلمات العشر - من القرآن المجيد - التى تحدد ماهية الإنسان وطبيعة خلقه المتعالية ، وشكل المعرفة لديه ، وهى التى يدور حولها الفكر البشرى منذ آلاف السنين ولم يستطع إلا الإقتراب منها .. ومن بعيد فقط !!!

و كلمة " طين " تعنى العناصر الأرضية أى المركبات العضوية وغير العضوية ، وكلمة " سوى " الشئ يعنى : قومه وعدله وأنضجه (أى غيره من حال غير صالح إلى حال صالح) . وسوى الشئ بالشئ جعله يماثله ويعادله ، وهى تعنى الوصول به إلى الغاية أو الهدف المحدد أو المراد به من الخلق .

وللحق وقتت طويلا أمام الفكر الفلسفى للبشرية الضالة ، وتاملت هذا الفكر طويلا ، كما تأملت هذه الفلسفات طويلا فوجدتها لم تتجاوز المعانى الفطرية السابقة التى جاء بها القرآن المجيد فى تلك الكلمات الاثنى عشر السابق عرضها . فالفيلسوف — شأنه فى هذا شأن أى إنسان آخر عادى — لديه الوعى الفطرى بوجود الله ، كما لديه أيضا الوعى الفطرى بالمعرفة العقلية بالموجودات المحيطة .. ولكن يبدو هذا الوعى ملتبسا عليه ، وبهذا يصبح متشككا فيما يحس به وفيما يدرك . ويصبح هذا الوعى الفطرى مجرد أحاسيس يحاول جاهدا ودائما التثبت منها ، طالما لم يؤكدتها ويفسرهما له الخالق بطريقة مباشرة وغير مباشرة ..

ومن الغريب حقا ، أن الفيلسوف يريد أن يصل إلى حالة من الكشف الإلهى ، أى " كشف الحجب" وهى الحالة التى يصل إليها الصوفى^{١٠١} كنتاج نهائي من ذكره الله ، ولم يدرك الفيلسوف أن الفارق بينه وبين الصوفى ، هو أن الصوفى قد أحسن التوجه إلى " الله " منذ البداية ، بينما الفيلسوف قد أخطأ فى التوجه إلى " الله " منذ البداية . فالفيلسوف لم يتوجه إلا إلى نفسه ، كما لم يتوجه إلا إلى عقله ، وبديهى لن يجد لديه إلا ما لديه ، أى الفطرة التى بدأ بها . وتصبح الفطرة لديه مجرد أحاسيس وإدراكات بحقائق تتطير كومضات معرفية من حوله ينقصها يقين الكشف المباشر ، وبذلك نجد الفيلسوف يعبر عن هذه الأحاسيس بغموض واضح عن وجوده وأصل معرفته . كما يعبر عنها بتعابير مبهمه فى أغلب أحواله . كما وإن إحساس العامة بهذه التعابير يكاد يكون معدوما من جانب ، كما وإنها تمثل معرفة غالبا فاقده للحياة فى معناها من جانب آخر . وغالبا لا تقود مثل هذه التعابير الفرد العادى إلى شىء له قيمة ، كما لا يمكن أن تقود — هذه المعرفة — الإنسانية إلى هداية ما . ودعنا نبين ذلك بالمثال التالى :

سوف نرى حالا ؛ بأن الفلسفة الوجودية (Existentialism) تقول بأن وجود الإنسان سابق على ماهيته ، بينما فلسفة الظاهرات (Phenomenology) تقول بأن وجود ماهية الإنسان سابقة على وجود الإنسان ذاته^{١٠٢} . أى إننا هنا إزاء فكرين متناقضين تماما ، فكلا الفلسفتين تف من الأخرى موقف الفكر المناقض للفكر الأخر !!..

١٠١ لا بد لي أن أنبه إلى وجود بعض الفرق الصوفية الضالة ، وهى الطرق التى تذيب الفوارق بين الأديان ، وتعتمد فى ذكرها على وجود الفطرة الإلهية فقط ، بينما تغض بصرها عن المنهاج الإلهى نفسه .. وهو ما يخرجها من حيز الإيمان إلى الشرك بالله !!.. فلا يجوز عبادة الله — سبحانه وتعالى — إلا بمنهاجه .. وليس بمنهاج وضعى من هوى البشر !!..

١٠٢ يرى الفلاسفة أن لكل شىء : " ماهية " و " وجود " . فـ " الوجود " هو الحضور الفعلى للشىء فى هذا العالم . أما " الماهية " فهى الصفات الجوهرية الثابتة التى يكون عليها الشىء (أى الفطرة باختصار شديد) . فالإنسان ماهيته كائن حى حساس مفكر ، أما وجوده ، فهو

ولنا هنا التعليق التالي : فمن منظور الفكر الفلسفي فإن : " الماهية تسبق الوجود " (كما في فلسفة الظاهرات) ، تستلزم وجود الإله ، بينما " الوجود يسبق الماهية " (كما في الفلسفة الوجودية) لا يستلزم وجود الإله بالضرورة .

والجهل الواضح في الفلسفة الوجودية – والذي لم تنتبه له – أنها لا تستطيع إنكار وجود المادة والقانون الطبيعي (أصل التفاعلات الحيوية ونشأة الحياة) ، وبالتالي فإنها قد استبدلت " الإله " بـ " المادة والقانون الطبيعي " ، والتساؤل البسيط حول موجد المادة والقانون الطبيعي .. يقود مباشرة إلى وجود " الله " (ﷻ) . أي أن " الله " (ﷻ) يجب أن يكون موجودا في الفلسفة الوجودية كما هو موجود في فلسفة الظاهرات ، ولكن الجهل المركزي لفلسفة الوجودية هو الذي يقود لإنكار وجود الله (ﷻ) . ولكن تبقى المشكلة قائمة في الفلسفتين – حتى في حالة التسليم بوجود " الإله " في الحالتين – فهل الإله هو " ذلك الخروف ذو السبعة قرون .. كما ورد شكله في الديانة المسيحية ..؟! "

والآن أن لنا أن نسأل هؤلاء الفلاسفة (العقلاء منهم وغير العقلاء معا) : ماذا يجنى الإنسان من وراء هذه المعرفة أو تلك (أى الماهية قبل الوجود أم الوجود قبل الماهية) ، وخصوصا إذا ما كانت الفلسفتان تقودان إلى : " إله " عبارة عن " خروف له سبعة قرون " !!..

ثم ؛ هل ستقودنا هذه المعرفة أو تلك إلى معرفة وجود الإنسان ومصيره ..؟! أم سيكتفون بأن يقولوا ببلاهة بأن الإنسان عدم ، لا وجود له وينكرون هذا الحضور . وأن الإنسان لا مصير له .. وينكرون علينا وعينا الفطري بإدراك الخلود ..!! ثم ماذا نفعل عندما يدركنا الموت حقيقة .. ونقف وجها لوجه معه ..!! أسنقول مثل ما قال سارتر – هذا الأعمى المستعمى مؤسس هذا الخلط – أنقول لمن حولنا .. إحضروا لنا قسا حتى نعترف له بهزيمتنا أمام الموت أملا في النجاة .. وأى نجاة هذه في ذهابنا إلى الخروف ..!! فأى هراء هذا الذى يقول به الفلاسفة ..!! أى خطل وأى خلط هذا الذى يتبته فيه الإنسان ..!! لقد كاد الإنسان هذا

أنا وأنت ومحمد وعلى وجورج .. ويرى الفلاسفة السابقون على الوجوديين ، أن الماهية سابقة على الوجود . فمثلا ماهية المدرسة سابق على وجودها . لأن قبل أن توجد المدرسة ، كان هناك من قرر بناءها ، والهدف منها ، ثم قام أحد المهندسين بتصميمها ، وتحديد عدد حجراتها والأبواب التى تتكون منها .. إلى آخره . وبهذا المعنى نرى أن الماهية تسبق الوجود تغنى وجود الخالق . وعلى الرغم أن الوجودية تتفق مع الفلسفات الأخرى فى القول بأن ماهية الأشياء تسبق وجودها ، إلا إنها تستثنى من ذلك الإنسان . فترى أن وجوده يسبق ماهيته ، وبهذا تغنى فكرة الخالق – أى صاحب القرار الموجد للإنسان – ضمنا .

الكانن أن يكون مغيبا عقليا بإرادته ..!! ولاهث وراء سراب من المعرفة لا قيمة لها ، كما ينبهنا الله بقوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَقِيعةٍ يَحْسبُهُ الظَّمآنُ ماءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَاءَهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾

(القرآن المجيد : النور {٢٤} : ٣٩)

[التفسير : قِيعَة جمع قاع (كـ : جيرة جمع جار) والقاع : ما انبسط من الأرض واتسع وفيه تحدث ظاهرة السراب]

إن غياب الهدف في الفلسفة هو أحد سماتها المميزة . فلا يكفي أن يقول الفلاسفة أن هدف الفلسفة هو المعرفة ، والمعرفة هي التي سوف تقود الإنسان إلى السعادة المطلقة . لأننا سوف نقول لهم .. حسنا ..!! اخبرونا الآن — أيها السادة — ما هي سعادة الإنسان ، باعتبارها الهدف النهائي للفلسفة لديكم ..؟! وبديهي لن نجد لديهم إجابة ..!! لأن السعادة ليس لها تعريف لدى الفلاسفة ، وليس هذا فحسب ، بل أن الإنسان نفسه ليس له تعريف في الفلسفة .. باستثناء أن يكون نجارا أو زبالا أو فيلسوفا .. كما تعرفه بهذا الفلسفة العبيثة .. أقصد كما تعرفه بهذا الفلسفة الوجودية ..!! أما إذا قال الفيلسوف أنه يريد بفلسفته تخليص الإنسان من خوف الموت — الفطري — الكامن فيه ١٠٣ ..!! فنقول له بأن هذا يستلزم معرفة الموت وما بعد الموت . ويحق لنا أن نسأل الفيلسوف إذا كان هذا هو غرضه فعلا ؛ فما هو العلم الدنيوي الذي يستند إليه — في فلسفته — والذي تكون جذوره في عالمنا هذا ، كما تمتد فروعه لتعبر

١٠٣ كـمحاولة للتخلص من هذا الخوف قام نيتشه بتأسيس عقيدة تعرف باسم : " العود الأبدي " ؛ وهي عقيدة تماثل — في جوهرها — تناسخ الأرواح في عقائد الهند الكبرى كالبيودية والهندوسية ، ولكن بمفهوم أعم وأشمل من تكرار حياة الفرد . فعقيدة نيتشه تقول بتكرار الكون وما فيه على نحو متواصل وأبدي ، أي أن الكون يتكرر بكل ما فيه بما في ذلك الإنسان وحياته وأعماله بصفة دائمة كلما إنتهى . ويقول نيتشه بأن الفترة بين خمود الوعي (أي الموت) وعودة ظهوره مرة أخرى عند تكرار الكون لا يقاس بزمن ، بل هي كوميض البرق ، ما دام الوعي الذي يحس بالزمن ويقبسه مختفيا خلالها . ومعنى ذلك أن الميلاد الجديد — بالنسبة إلينا — يتلو الممات مباشرة . ولم يقل نيتشه بأن عودة الإنسان سوف تصحبها ذاكرة ما يمكن أن يستفيد منها المرء في الحياة التالية ، وبهذا لا يكون هناك إتصالية ما بين حيوات الفرد المتكررة . ولم تتجاوز " عقيدة نيتشه " هذه عن الفكر العشوائي الذي لا تؤيده — حتى — فطرة ما أو إحساس صادق يمكن الركون إليها ، كما لا يوجد لها براهين ما يمكن أن نعول عليها . وبديهي لم يتخلص نيتشه من عقدة الخوف وانتهت حياته بالجنون التام . وتخضع " عقيدة نيتشه " لنفس عيوب ديانات الهند الكبرى ، كما تخضع لنفس النقد الذي سبق التعرض له — عند مناقشة هذه الديانات — في " الفصل الثاني " من هذا الكتاب .

الحياة لترينا الموت وما بعد الموت ؟! ويدهى لن تكون هناك إجابة صحيحة لمثل هذا السؤال .

ففى الواقع ؛ إن الإنسان لا يملك إلا العلوم الرياضية والفيزيائية وتطبيقاتهما المختلفة ، والتي يمكن أن يرى فيهما بعض النبؤات الدنيوية والمحدودة معا (فهذا كل ما يملك الإنسان من ضعف ..!!) . وهنا ينبغي أؤكد للرياضيين وغير الرياضيين ، على أن الرياضة هي الدائرة المغلقة التي لا تقدم كثيرا للإنسان نحو سبر غور معرفة ما يمكن أن نعول عليها فى معرفة الموت وما بعد الموت .

فجميع " القضايا الرياضية " هي القضايا التي يمكن ردها إلى صيغة " أ هو أ " بتكرارية منفصلة توحي بالتباين والتجديد ، وذلك على الرغم من سكونها وسكون الموت القابع فيها . وبهذا فالبدء بعالم الواقع فى القضايا الرياضية لن تنتهى منه إلا بعالم الواقع ولا تزيد . وبهذا لن يتقدم الإنسان بهذه المعرفة قيد أنمله نحو سبر غور معنى الموت وما بعد الموت .

أما المعرفة الفيزيائية فلا تعدو عن وصف العالم الظاهرى ، أو العالم الفيزيائى الواقع فى قالب رياضى بحت . أو بمعنى آخر فإن المعرفة الفيزيائية هي معرفة القانون الرياضى أو الصفة الرياضية التي تحكم العلاقات المتبادلة بين متغيرات الظاهرة الطبيعية فحسب . حيث يسمح هذا القانون الرياضى/الفيزيائى الخاص بالظاهرة (أو أي ظاهرة ما) بتطبيقه فى مجالات أخرى غير المنطقة الأولى للظاهرة نفسها ، حيث تكون نتائجه – فى الحيز الآخر – بمثابة النبؤات العلمية التي تمثل التقدم العلمى المرتقب فى القطاعات الأخرى . ولكن هذه النتائج لا تتجاوز أرض الواقع أيضا الذى نحيا عليه ، أو الكون الحالى الذى تحكمنا قوانينه الفيزيائية السرمدية .

وفى الإجمال أقول ؛ أن النبؤات العلمية أو الفيزيائية هي نبؤات تتبع من أرض الواقع وتنتهى فى أرض الواقع ، حتى وإن بدى لنا – عن بعد – أنها تشير إلى عوالم أخرى ، فإننا لا يمكن إدراك تفاصيل قليلة أو كثيرة عن هذه العوالم . ولهذا ففى جميع الأحوال لا تستطيع أى نظرية فيزيائية سبر غور عالم ما بعد الطبيعة والتنبأ بما فيه بشكل محدد ويدعو إلى الثقة والإطمئنان إلى ما تنتهى إليه من نتائج . وبهذا لا تبعدنا المعرفة الفيزيائية عن حواسنا كثيرا ، وبهذا لا تصلح لمعرفة الموت وما بعد الموت .

فماذا بقى — إذن — للإسنان ؟ أقول : لقد بقى للإسنان " الدين " نفسه . والدين هنا ، ليس بمفهوم " القضايا الغيبية " ولكن بمفهوم " القضايا العلمية الكلية " التى توجد أصلها فى أرض الواقع وتنتهى فروعها إلى الغيب وما بعد الغيب . وبديهى يلزم الإخبار عن هذه القضايا من يملك " علم الإمتداد المطلق " ، أى الذى يملك رؤية العوالم المختلفة والطبيعة المغايرة لكل منها ومدى تغاير الإنسان مع كل منها مع ثباته الأبدى والسرمدى فى جوهره . أى يجب أن يكون المخبر عن هذه القضايا هو الخالق المطلق ، أى هو :

﴿ ... اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) ﴾

(القرآن المجيد : الرعد {١٣} : ١٦)

أو :

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) ﴾

(القرآن المجيد : الحشر {٥٩} : ٢٢ - ٢٤)

[عالم الغيب : هو عالم ما بعد الطبيعة / عالم الشهادة : هو العالم الفيزيائى الذى نحيا فيه ، أو كوننا هذا]

وبهذا تصبح " القضية الدينية " قضية علمية كلية لواقع خلى لا ندرك منه إلا جزئية فقط ، يكون امتدادها الطبيعى غير مدرك ، ولكن يصبح الوجود شاهد الصدق عليها بدلالات فيزيائية ورياضية متفق عليها فى أسلوب البرهنة ، كما لا تحتل الشك أو التأويل بغير الحق .

والآن وبعد استيعاب ما سبق عرضه .. فأقول : أين الوعى الإنسانى ؟! .. وأين العقل الإنسانى المغيب فى فلسفاته المحدودة ؟! .. والتي لا يمكن للتعبير عنهما بأي صورة رياضية ما ..!! لذا ينبغى أن أؤكد أن على الفيلسوف أن يحدد لنا قبل أن يبدأ فلسفته أولاً غاياته ويخبرنا بها ، حتى ندرك وندرى فى أى طريق هو يسير ، وفى أى إتجاه يحاول أن يأخذنا معه .. كما يجب أن يخبرنا على أى علم يستند إليه ..؟! حتى لا تؤخذ آراؤه الطابع الجزافى المنفصل عن أرض

الواقع ، وبهذا لا يمكن أن نعول عليها كثيرا أو قليلا ، فى تحديد وجودنا والغايات من خلقنا .
لهذا يجب على الفيلسوف أن يحدد لنا الآتى :

أولا : ما هو الإنسان ؟ (ولن نقول له ؛ ما حقيقة وجوده ؟ ومن أين أتى ؟ باعتبار أن هذه الأسئلة غاية نهائية مطلوب الإجابة عليه) . فعلى الفيلسوف إن أمكن – ولن يمكن – أن يعرف الإنسان بدقة كافية ، حتى يكون على دراية عما يتكلم عنه ١٠٤ . فكما سنرى ، إن غاية معرفة الفلاسفة عن الإنسان هو أنه كائن موجود ، أى أن الفلاسفة موجودين ، كما قال بهذا ديكارت . وحينما قال ديكارت مقولته الشهيرة : " أنا أفكر إذن أنا موجود ١٠٥ " ، صفت له البشرية وأثبت عليه ، وقالت بأنه أبو الفلسفة الحديثة ، لأنه قال لنا بأننا موجودين ..!!
وبالها من مقولة ، وبالها من معرفة كانت غائبة عنا حقا ..!! فلم نكن نعلم بأننا موجودين حتى قال لنا بهذا ديكارت أبو الفلسفة الحديثة ..!!

وليت الأمر اقتصر على ذلك ، بل أتى " ألفريد جولز آير " فى الفلسفة المعاصرة (فى الفلسفة الوضعية المنطقية : Logical Positivism) ، كما رأينا ، ليناقض ديكارت ويقول " أنا أفكر إذن أنا موجود " هو فرض خاطيء ، فليس من الضرورى أنا أفكر ، أن يتبع هذا أن أكون أنا موجودا ..!! وهكذا يعلق آير وجود الإنسان مرة أخرى على براهين أخرى ..!!
وهكذا أعادنا ألفريد جولز آير إلى الضياع والوحشة مرة أخرى .. وأصبحنا لا ندرى .. من وجهة نظر الفلاسفة ..!! إن كنا موجودين حقا ؟! أم نحن غير موجودين ؟!

ثانيا : هل الفلسفة – أو حتى المعرفة – التى ينادى بها الفيلسوف سوف تقود الإنسان فعلا إلى معرفة حقيقته ، بمعنى معرفة حقيقة وجود الإنسان ومصيره (ولن أقول وماهى الغايات من خلقه ، فقد يكون الفيلسوف غير مؤمن بوجود الخالق ..!!) ؟.. أم إن الفيلسوف نفسه ضال ومضلل .

١٠٤ سبق تعريف الإنسان من واقع الفكر القرآنى فى بند ٣ السابق .

١٠٥ وهو البرهان المشهور بإسم " الكوجيتو " ، أى برهان وجود النفس . وبديهى إن معرفة كهذه لا تقنى ولا تسمن من جوع . فبممكن أن نقول حسنا ، لقد عرفنا إننا موجودون ، ولكن من نحن .. ومن هو الإنسان ؟ ويصبح التعريف مفتوح مرة أخرى على مصراعيه ، لأن هذه المقولة لم تؤدى إلى تعريف ما يمكن أن يعول عليه ..!!

ثالثًا : إذا ما تشدق الفيلسوف وقال : إن الغرض من فلسفته هذه ، هي أن يقود الإنسان أو يقود البشرية إلى السعادة الحقّة ..!! فأقول له : ويحك .. أكيد أنك تمزح أو تكذب أو كلاهما معا ..!! فأنت لا تعرف للسعادة معنى ..!! كما وإنك لا تعرف للسعادة طريقا ..!!

ولم يحدث ، حتى الآن ، أن قام واحد من الفلاسفة بـ " تعريف السعادة " ١٠٦ أو حتى تحديد منظور نسبي لها على نحو مقنع ومتفق عليه من نسبة محقوله من البشر ..!! وبذلك لا يعي الفلاسفة ماهو الهدف النهائي والمنشود من سعيهم ؟ كما لا يعوا في أى طريق يسرون ؟ وإن ساروا ؟ لا يمكنهم التنبؤ إلى أين ينتهى بهم المقام في هذا الطريق ..!!

ولنا أن نسأل الفيلسوف سؤالاً أخيراً حول هذا المعنى فنقول له : هل يكفي للإنسان – والموت يتراقص من حوله وبملا جوانبه – أن يعيش في " جمهورية أفلاطون " ذات نظام الحكم الديكتاتوري – كما رأينا – حتى يدرك الإنسان حقيقة ؛ أى حقيقة وجوده وحقيقة مصيره ، وحتى تتحقق له السعادة المنشودة ..!! أم هل يكفي للإنسان – والفناء يغلفه ظاهراً وباطناً – أن يعيش في المجتمع الشيوعي – ليتم توزيع الخبز عليه بالتساوي مع باقى أفراد القطيع الحيواني/البشري – حتى يدرك حقيقة ، وحقيقة وجوده وحقيقة مصيره ، وحتى تتحقق له السعادة المنشودة ..!! بديهى .. لا !!

١٠٦ فى الواقع ، تخضع السعادة لحالة فيزيائية هامة تعرف باسم حالة : " الإلتزان الغير مستقر : The state of Unstable Equilibrium " . وخير مثال لتشبيه هذه الحالة هو : وجود قمة جبلية بين واديين ، فإذا ما وضع حجر ما على القمة الجبلية فسوف يستقر عليها طالما لم يحركه أحد من مكانه ، وتعرف حالة الحجر فى هذا الوضع باسم حالة الإلتزان غير المستقر ، لأن مع وجود أدنى تغير فى مكان الحجر ، فسوف يتدحرج الحجر من قمة الجبل ليستقر فى قاع أحد الواديين ، حيث يعرف فى هذه الحالة ، أى حالة وجود الحجر فى قاع الوادى باسم : " حالة الإلتزان المستقر : The state of Stable Equilibrium " . لأنه سوف يكون أكثر إستقراراً فى هذا الوضع ، لأن عند تحريكه من مكانه هذا ثم تركه ، نراه يعود إلى نفس المكان ، أى إلى قاع الوادى مرة أخرى .

والقمة الجبلية فى هذا التشبيه هي سعادة الإنسان ، والواديان هما المعاناة التى يعيشها الإنسان . وعلى هذا فـ " السعادة " لدى الإنسان هي حالة من حالات الإلتزان غير المستقر ، بينما " المعاناة " لدى الإنسان هي حالة من حالات الإلتزان المستقر . والإنسان فى رحلة الحياة يتحرك بين قيم السعادة ووديان المعاناة ، ويكون أكثر إستقراراً على المعاناة ، فالأصل هو المعاناة (الكبد) . وهذا الفكر مستمد مباشرة من " القرآن المجيد " . أما تعريف السعادة وكذا تحويل حالتها من حالة الإلتزان غير المستقر إلى حالة من حالات الإلتزان المستقر ، فلا تأتي إلا من خلال ما يعرضه الفكر الإلهي على الإنسان .

فالحقيقة — وبالفطرة — نجد أن سعادة الإنسان ترتبط بشكل مباشر في القرب من خالقه .. كما جاء في قوله تعالى ..

﴿ .. فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧) ﴾

(القرآن المجيد : طه {٢٠} : ١٢٣ - ١٢٧)

[ومن أعرض عن ذكرى : تشير إلى الابتعاد عن ذكر الله — سبحانه وتعالى — والبعد عنه / الضنك : الضيق .. وقيل العذاب / أسرف : بالشرك بالله / ولعذاب الآخرة أشد وأبقى : من عذاب الدنيا]

فكما نرى من النص الكريم السابق أن السبيل الوحيد للوصول إلى السعادة الحقة هو في القرب من الخالق ، أن في القرب من الله (ﷻ) واتباع منهجه ، لأن الأصل في الخلق هو التعب والمشقة (لحكمة الابتلاء أو اختبار الإنسان في حمله للأمانة على النحو السابق ذكره) كما جاء في قوله تعالى ..

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) ﴾

(القرآن المجيد : البلد {٩٠} : ٤)

والكبد : هو المعاناة والمشقة .. ولا سبيل لملافاة هذا الوجود إلا في القرب من الله ، سبحانه وتعالى ..

٦. بين الدين والفلسفة ..

كما رأينا أن غاية فكر الفيلسوف — الطفل — كارل ماركس ١٠٧ هو أن المجتمع البشري يتطور بسلسلة من التناقضات ، بين الدعوى ونقيضها لينتهي بالمركب الجامع لهما . لذا نجده يقول بأن المجتمع الرأسمالي (أى الدعوى : Thesis) ، يحدث نقيضة (أى نقيض الدعوى :

١٠٧ راجع كارل ماركس في الفلسفة المادية .

(Antethesis) وهو (البروليتاريا : Proletariat) — وهي الطبقة الدنيا من العمال والكادحين — التي تنقض هذه بدورها إلى تقويض الرأسمالية . ثم تنتهي الدعوى ونقيضها بالمركب الجامع لهما وهو المجتمع الشيوعي اللاتبقي . ولم يتجاوز فكر هذه الفلسفة ، عن فكر المعادلة الحسابية البسيطة : $[١ + (-١) = صفر]$ ، ليخلق لنا هذا الفيلسوف مجتمعا من اللصوص والأفاقيين والسفاحين والقتلة ١٠٨ !!.. فهذا هو نزوة علم الإنسان !!.. ولهذا يقول لنا المولى عز وجل :

﴿ ... وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥) ﴾

(القرآن المجيد : الإسراء {١٧} : ٨٥)

وليس معنى هذا — كما سبق وأن ذكرنا — أن علم الإنسان متناه ، بل أن المولى عز وجل يقرر لنا أن علمنا لامتناهى كما جاء في قوله تعالى :

﴿ ... وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾

(القرآن المجيد : يوسف {١٢} : ٧٦)

و" عليم " ليس من أسماء الله الحسنى ، بل " العليم " هو الذى من أسماء الله الحسنى . والآية السابقة هي تعريف لـ " لانتهائية العلم بشكل مطلق " أو بشكل في غاية من الصراحة ، كما سبق وأن أشرنا إلى هذا من قبل . وهكذا يقرر الله (ﷻ) باللامتناهى العلمى للإنسان ، كما يقرر بأن الإنسان حتى في نهاية علمه لن يبلغ هذا اللامتناهى . وإن أدرك هذا اللامتناهى ، فلن يجد لديه إلا المتناهى ، أى القليل من العلم ، كما جاء في قوله تعالى ﴿ .. وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . وليست هذه فلسفة أو عرض غامض لفلسفة مبهمه ؛ بل هي تعبير رياضى بسيط يجد أصله أى رياضى عادى في مفهوم وطبيعة الدوال التقاربية .

وهكذا تحمل كلمات الأيتين السابقتين (وهي إحدى عشر كلمة فقط) " فكر القضية الغيبية الكاملة " وهي : " لانتهائية العلم ومحدوديته في نفس الوقت " . ولكن الله (ﷻ) مع ذلك يضع هذه القضية بالكامل في حيز عالم الشهادة ، أى في حيز العالم الفيزيائى المحسوس ، كما

١٠٨ كما سبق وأن ذكرت ، فإن عدد القتلى الذين قتلهم ستالين (١٨٧٩ - ١٩٥٣) ، أحد أئمة الحزب الشيوعي ودكتاتور الإتحاد السوفيتى سابقا (وأسمه الأسمى يوسف فيسرا بوفتش جوجا شفيلي) بلغ حوالى عشرين مليوناً من المواطنين السوفيت . وكما هو معروف ، أنه لا وجود للحرية الفردية أو الديمقراطية في دستور الشيوعية (أى الإتحاد السوفيتى سابقا) .

نرى هذا كله وندرکه من واقع نحياء ، ليكون لنا فى هذه الكلمات السابقة .. التجربة ويكون لنا فى هذه الكلمات البرهان الكافي .. على صحة وصدق هذا الكتاب العظيم ، أى القرآن المجيد . ويكون الإنسان هو خير شاهد على هذا .. وعلى نفسه .

وقد يحتج الفلاسفة .. وقد يحتج الإنسان .. لأنه لا يرى ما نرى .. ولا يرى فى هذا دليلاً كافياً ..!! فنقول له حسناً .. أتريد دليلاً آخراً ..؟! وإن كان هذا ليس مقامه ، فيقول نعم ، فنقول له اسمع .. إلى موعد يوم القيامة .. إحدى " قمم القضايا الغيبية " بالنسبة للإنسان ، والتي يضعها المولى (ﷻ) بكاملها فى عالم الشهادة أى فى عالم المحسوسات .. وليت الإنسان يدرك هذا .. ولنستمع معا إلى قوله تعالى :

﴿ ... حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلِهَا أَنَّهُم قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْن بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) ﴾
(القرآن المجيد : يونس {١٠} : ٢٤)

[أمرنا : قضاؤنا بهلاك من عليها / حصيدا : مقطوعا ومقلوعا من أصله / كان لم تغن : كان لم تكن قائمة من قبل على الأرض]

جزء فقط من آية .. وليست آية كاملة ..!! لا إله إلا الله .. وتعتقد الدهشة لسانى عن الكلام عن هذا الإحكام فى العرض ..!! فى قوله تعالى ﴿ ... حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ ... ﴾ ...
يعنى بأن الإنسان سوف يصل إلى غاية التقدم العلمى والتكنولوجى على حد سواء ، أى سوف يصل الإنسان إلى ذروة تقدم العلم النظرى والعلم التطبيقى على حد سواء ، كما يستصل الحضارة البشرية من الناحية العمرانية إلى أوجها ، أى إلى ذروتها على سطح هذا الكوكب .. كوكب الأرض .. وهذا هو الحادث فعلا ، فنحن نسير بخطى متسارعة فى هذا الاتجاه ..

ثم نأتى إلى قوله تعالى ﴿ ... وَظَنَّ أَهْلِهَا أَنَّهُم قَادِرُونَ عَلَيْهَا ... ﴾ ، وأهلها هنا ، هم أهل الأرض ، أى البشرية جمعاء . وتعنى هذه الكلمات بأن الإنسان سوف يقترب من غاية أو ذروة التقدم العلمى ، وبهذا التقدم سوف يعتقد الإنسان ، أو بمعنى أدق سوف يظن الإنسان ، بأنه قد سيطر على هذا الكوكب ، كما سيطر على كل ظواهره ، حتى أصبح يعتقد أنه يتحكم فى حدوث هذه الظواهر . وبديهى إننا لن نقرب من هذا المعنى إلا بعد غاية التقدم العلمى ، وغاية التقدم

الحضارى على مر تواجد الإنسان على سطح الأرض .. ولكن هذا كله يدور فى فلك الممتاهى
أى القليل من العلم ﴿ ... وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

والآن ؛ وجهها لوجه مع اللامتاهى العلمى الذى ينتهى أو يؤول بالإنسان إلى الممتاهى
العلمى ، أو المحدود أو القليل ، لأننا بعد كل هذا التقدم سوف ندرك .. أننا ما زلنا ذلك الإنسان
العاجز الذى لم يدرك إلا القليل من العلم . وتبقى ﴿ ... وَظَنَّ أَهْلُهَا ... ﴾ — فى الآية السابقة
— شهادة صدق على عدم إدراك الإنسان للقيم النهائية لهذا اللامتاهى على الرغم من قلته ،
فمازال هناك قيم يمكن إدراكها ، ولكنها قيم صغيرة ولا ترضى غروره !!..

وهنا يقترب الإنسان إلى التناهى من هذا الوجود .. ولم يبق له حينئذ إلا ما بقى .. وهكذا يصبح
الوجود سجنًا قد أغلقه الله على الإنسان .. وبهذا لم يعد هناك معنى لهذا التناهى .. وبهذا لم يعد
هناك معنى حتى للأمل ، كما لم يعد هناك معنى لابتناء الإنسان أو اختباره فى حسن الأداء ..
ولتنته القصة إذن ، قصة هذا الوجود الجزئى للإنسان من على سطح هذا الكوكب — كوكب
الأرض — التى تأتى بها الجزئية الثانية من الآية الكريمة السابقة ، فى قوله تعالى ﴿ ...
أَتَاهَا أَمْرًا لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ ... ﴾ .

وقد يتنبه الخافل أو قد لا يتنبه إلى الدقة الممتاهية فى قوله تعالى ﴿ ... أَتَاهَا أَمْرًا لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا
... ﴾ التى تعنى بأن قضاء الله سوف يأتى بالخاتمة إلى الكرة الأرضية فى وقت واحد .. أى
عندما يكون نصفها ليلا .. ونصفها الآخر نهارا ..!!! وينهى الله (ﷻ) هذه الآية الكريمة
بقوله تعالى ﴿ ... كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، لعل الإنسان يتفكر فيما يسمع
..وفىما يرى ..!!..

ولتتداخل الشبكات التلفزيونية ومحطات الإذاعة فى تلك اللحظات الأخيرة لوجود هذا
الإنسان على سطح الأرض ، ولتنتقل الإذاعات المحلية والعالمية " الأخبار " الآن ، لتعلن هذه
اللحظات الأخيرة .. لحظات النهاية .. نهاية هذا الوجود الإنسانى أو الجنس البشرى ١٠٩ .
ويبين لنا المولى عز وجل هذا فى قوله تعالى :

١٠٩ جميع التفاصيل العلمية المذهلة وبدقة متناهية ، لتلك اللحظات الأخيرة لنهاية الجنس البشرى
من على كوكب الأرض ، سوف يتم مناقشته بإذن الله فى كتابات تالية .

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) ﴾

(القرآن المجيد : الزلزلة {٩٩} : ٤ - ٥)

هذه هي إحدى قمم " القضايا الغيبية " أي " قضية يوم القيامة " ووقتها يضعها المولى (ﷻ) بالكامل في عالم الشهادة (أي العالم المحسوس) .. ثم ألا ترى معي في قوله تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ تعني أن القنوات الإخبارية .. الجزيرة .. والعربية .. و .. BBC .. CNN وغيرها من القنوات .. سوف تتداول هذا الخبر على نحو متواصل !!.. وليعيد الفيلسوف – والعامه أمثالي – قراءة قوله تعالى :

﴿ ... حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَطُنَّ أَهْلُهَا أَلْهَمَ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرًا لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ الْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) ﴾
(القرآن المجيد : يونس {١٠} : ٢٤)

لعلنا ندرك ما نسمع أو نعى قليلا ما يقوله لنا الله (ﷻ) في محكم تنزيله . فهل وعى الإنسان هذا .. وهل وعى الفلاسفة هذا .. أم مازالوا يلهثون وراء سراب اسمه نظرية المعرفة أو الإستمولوجيا ، كما يحلو للعامه تسميتها .. وهم لم ينتبهوا أو يدركوا قوله تعالى ﴿ ... كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

ثم يبين لنا المولى (ﷻ) بأن الماضى والحاضر سوف يتصلان في تلك اللحظات الأخيرة لوجود الإنسان .. ليبدأ معا رحلة المستقبل .. ليبدأ الله (ﷻ) الفصل الثاني من السيناريو الإلهي .. لهذا الامتداد الزماتي والمكاني للكل .. أى لكل البشرية ، ولكن بمفهوم أعم وأشمل من هذا الوجود القاصر وهذا التناهي الجزئى .. لنبدأ معا لامتناها آخر !!.. كما جاء في قوله تعالى :

﴿ ... وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) ﴾
(القرآن المجيد : الواقعة {٥٦} : ٦١ - ٦٢)

فهذا هو غاية علم الإنسان .. إنها النشأة الأولى فحسب التى نحياها الآن على سطح هذا الكوكب .. كوكب الأرض . أدرك الإنسان بعض من معاني التطور العريض الذى يقول به المولى

(سجدة) عز وجل ..! إذا ما علم أن أحد صور تطور الإنسان — فى الآخرة — هو ما جاء فى قوله تعالى عن أهل الجنة :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِى لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) ﴾

(القرآن المجيد : الأعراف {٧} : ٤٣)

و " الغل " هو الحقد والضغن والكراهية ، أو قل هو " غريزة القتال لدى الإنسان " . ونزع غل ما فى الصدور هو نوع من تطور النفس البشرية ، وهذا ليس تطورا ماديا (وكما سنرى فى كتابات تالية أن الروح لا تتطور) .. أدرك الإنسان إذن الفجوة بين ما جاء به القرآن المجيد ، وبين ما جاء به " دارون " من معانى ١١٠ ؟

وهل أدرك الإنسان معنى قوله تعالى : ﴿ ... وَمَا أَوْتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، أى أن الله — سبحانه وتعالى — لم يمنحنا ، كما لم يمنح دارون إلا القليل من العلم .. ليستمكّل لنا الله — سبحانه وتعالى — بطريقة مباشرة الكثير ..!! وتذرف العين دموع ألم ، تملؤها الحسرة على هذا الإنسان .. لتتناغم النفس مع النص الإلهي ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٠) ﴾

(القرآن المجيد : يس {٣٦} : ٣٠)

وتطول حيرة الإنسان ، وتقتصر حياته ، ولكنه يصر على إساءة التقدير ، كما يصر على جهله واستكباره ، ولتعيد دورة الحياة (The circle of life) نفسها ، وليكرر الإنسان نفسه ، ليقول عنه المولى — عز وجل — اليوم ، كما قال عنه — سابقا — لرسوله الكريم ..

﴿ كَلَّا إِنَّهُ (أى الإنسان الكافر) كَانَ لَآيَاتِنَا غَنِيْدًا (١٦) سَأَرَهْقَهُ صَعُوْدًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَفَقَلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصَلِّيه

١١٠ أنظر الملحق الرابع من هذا الكتاب لمزيد من التفاصيل عن نشأة الإنسان وتطوره .

سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَقَرَ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوْاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةٌ
عَشْرَ (٣٠) ﴿

(القرآن المجيد : المنثر {٧٤} : ١٦ - ٢٤)

[فقتل كيف قدر : أى فلعن تقديره واستحق عليه الهلاك / عبس : قبض ما بين عينيه / بسر :
كلح وجهه / أدبر : أعرض عن الإيمان / سحر يؤثر : سحر ينقله عن غيره / سألصليه سقر :
سأورده جهنم ، لأنه لم يحقق الغايات من خلقه / لواحاة للبشر : (أحد معانيها) محرقة لجلود
البشر]

ولم يدرك بعد هذا الفيلسوف التائه قوله تعالى ﴿ سَأَرْهِفُهُ صَعُودًا ﴾ . كما لم يدرك قوله تعالى :
﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةٌ عَشْرَ ١١١ ﴾ ، كما لم يدرك الفيلسوف نفسه .. وحيرته .. فى تلك الكلمات
القابضة والحاكمة له ولسلوكة الحائر .. ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ... فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ .. ثُمَّ قُلَّ كَيْفَ
قَدَّرَ .. ثُمَّ نَظَرَ .. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ .. ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ . فهذه هى حقيقة الإنسان !!
ويقف الفيلسوف المشرك يغلفه العجز من كل جوانبه ، وتحيط به الحيرة من كل اتجاه ، يحك
رأسه كالأبله .. ولا يدري ماذا يفعل !! ثم نراه يدبر ، أى يعطى ظهره لهذا الكتاب العظيم
وينصرف عنه ، ويستكبر عن الإيمان به !!

﴿ ... وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَخُطِفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي
مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ﴾

(القرآن المجيد : الحج {٢٢} : ٣١)

أى خر من عال بين جبال صلدة .. لا نهاية لها .. ورياح قاسية ... صفيها يصم أذنيه ..
تتخطفة النسور والجوارح من كل جانب ، وتصبح الحياة لديه ذلك الكابوس الذى لا نهاية له ..
ولن يعى ما يعى .. ولن يدرك ما يدرك .. حتى قوله تعالى :

﴿ آلِ كِتَابٍ أَحْكَمْتَ آيَاتِهِ ثُمَّ فَضَّلْتَ مَنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ (١) ﴾

(القرآن المجيد : هود {١١} : ١)

١١١ يمثل هذا الرقم واحد من " الأكواد الجينية : Genetic Codes " فى القرآن المجيد ، ويدخل
من ضمن " الإعجاز العددي للقرآن المجيد " .

ولابد لى أن أشير هنا ؛ إلى أنه يكاد يكون من الغريب حقا أن تصل درجة الوضوح والاعتقاد في البراهين القرآنية إلى حد الاختفاء والتلاشي ، أى نفس سمة الوجود الإنساني ذاته . لأنه قد يكون من الغريب حقا أن تصل درجة الوضوح الإنساني إلى الحد الذى نقول معه باختفاء البرهان الدال على وجوده ووجود خالق له . فبدلا من أن نقول أن وجود الإنسان لهو خير دليل أو خير شاهد على وجود " الله " (ﷻ) الخالق له ، أصبحنا نقول أن الوجود الإنساني هو خير دليل وخير شاهد على عدم وجود الله ..!! سبحانه وتعالى وهو الظاهر فوق كل ظهور ..

وهنا تصل درجة التماثل أو التطابق بين الوجود القرآني وبين الوجود الإنساني إلى ذروة التناهي . وهنا يصبح القرآن كائننا حيا ليس بمفهوم معاني كلماته المحكمة أو بمفهوم مفرداته الجزئية وتكاملها الوظيفى فحسب ، بل بمفهوم درجة وضوح الكينونة ذاتها أيضا . فالوضوح القرآني هنا يصل إلى حد إنكار التنزيل الإلهي له ، تماما كما يصل درجة وضوح الوجود الإنساني إلى حد إنكار الخالق له .. حتى وإن كان الوجود الفعلى لكليهما يتلألا عرفانا بهذا الحق المطلق . وأعتقد أن هذا ليس فيه أى تجاوز لفظي أو أى غموض فلسفي ، بل هو واقع صدق يشهد على نفسه ، كما يشهد علينا نحن — بنو البشر — قصورنا الفكرى .. وقصور ما انتهينا إليه .

فكما رأينا ؛ أن الإنسان فى جميع فلسفاته .. اعتقد أن تحديد هوية أو توصيف نظرية المعرفة بدقة كافية سوف تقوده إلى معرفة الحقيقة المطلقة عن وجوده وعن مصيره ، وكذا الغايات من خلقه ، وقد يقوده هذا إلى السعادة المرجوة ، ولكن أخطأ الإنسان فى اعتقاده هذا . ونتيجة لهذا الاعتقاد فإننا نجد أن جميع الفلسفات لم تتجاوز فى معناها عن محاولة توصيف أو تعريف المعرفة ، وهل هى أصلها عقلى ، أم أن أصلها حسى أم أن أصلها مشترك ، أى الجمع ما بين العقل والحس . ولم يتنبه الإنسان ، سواء كانت المعرفة هذا أو ذاك ، فلا قيمة لما يعرف . فلا قيمة للإنسان أن يعرف أن أصل المعرفة هى بالعقل فقط ، أم إنها بالحواس فقط ، أو إنها تأتى بالجمع بينهما ، لأن هذا لن يحسم موقفه من معرفة حقيقته هو ١١٢ .. ومصيره هو .. وكذا الغايات من خلقه هو . فجميع هذه الأمور ليست أموراً ذاتية تنبع من داخل الإنسان ، بل هى أمور خارجية تأتى بالإخبار — الخارجى — المباشر والمستقل (أى وجود مفارق) عن فكر الإنسان .

١١٢ أرجو التنبه إلى أن المعرفة العقلية هى أحد الأئمة الهامة على وجود الله ، سبحانه وتعالى ، ولكن هذا سيظل فى إطار الشك لدى الإنسان ، ولن يحسم قضايا وجوده ومصيره .

وهكذا لم ينتبه الفلاسفة إلى أنهم حتى إذا ما انتهوا إلى توصيف نظرية المعرفة بالدقة الكافية ، فإن هذا لن يقودهم إلى تحديد هوية الإنسان والغايات من خلقه ، كما لن يقودهم هذا ، إلى فكر ما .. يذكر عن الله ..

فإنسان في كل فلسفته كمن يحاول توصيف جميع الخطوات اللازمة لبرهان النظرية .. وحسنا ما فعل !!.. ولكن أين هي النظرية !!؟ فالإنسان لم ينتبه – إلى الآن – وبكل أسف ، إلى أنه ليس هناك ثمة علاقة ما .. بين تحديد جميع الخطوات اللازمة لبرهان النظرية (أي نظرية) وبين النظرية نفسها .

وأكاد أسمع الفلاسفة يقولون ؛ إنك بهذا ترغمننا على قبول مبدأ الوحي الإلهي القادم من السماء (أي القول بوجود النظرية) . وها أنت قد عرضت هذا الوحي – في اليهودية والمسيحية – في الفصل السابق على هذا النحو الفكري المتردي !!.. فكيف لنا أن نقبل بمثل هذا التردي الفكري على أنه وحي إلهي قادم من السماء !!؟ فأقول له : ويحك !!.. كأنك لم تترك حتى الآن ما تم كتابته عن الوحي الإلهي الحق الصادق القادم من السماء ، الذي يقول الله عنه في محكم تنزيله :

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) ﴾

(القرآن المجيد : الحشر {٥٩} : ٢١ - ٢٤)

فإلى متى يظل الإنسان مستغلق الفكر ، تحت دعوى أن التجربة المريرة التي مر بها على يد الديانتين اليهودية والمسيحية ، هي التي جعلته ينفر من الدين الحقيقي ، ومن التدين ، ومن الوحي الإلهي الصادق القادم من السماء !!.. وإلى متى يظل الإنسان مستغلق الفكر تحت زعم أو دعوى أن هذه التجربة الفاشلة هي التي جرت عليه كل أذبال الخيبة والفشل التي نراها عليه الآن ، وهي التي جعلته لم يدرك الوحي الحقيقي القادم له من الله سبحانه وتعالى !!.. فهل وعى الفلاسفة معنى الآيات السابقة ومنها ﴿ .. وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أم أنهم سيطلوا بلا تفكير وبلا منطق ، وبهذا ينطبق عليهم قوله تعالى :

﴿ ... وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ خشبٌ مُسْنَدَةٌ ... ﴾ (٤)

(القرآن المجيد : المنافقون { ٦٣ } : ٤)

كانهم خشب مسنده .. سبحان الله ..!! وهكذا يتردى الإنسان إلى درجة من الحضيض الفكري تصل به إلى درجة الجماد ، أى أقل من درجة الحيوان . وينبها الله — سبحانه وتعالى — جميعا بقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ (٨٩)

(القرآن المجيد : الإسراء { ١٧ } : ٨٩)

ولا أدرى متى سيتنبه الإنسان إلى هذه المعاني .

فعلى الإنسان أن يتنبه ، بل ويعي أيضا أن القضية الدينية الحقة ليست قضية صراع بين أيديولوجيات (Idologies) فكرية ، بل هى قضية وجود الإنسان ذاته ، ومصيره هو ، والحكمة من خلقه . فهو الراح الوحيد إذا ما أدرك هذه المعاني ..

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ... ﴾ (٤٧)

(القرآن المجيد : سبأ { ٣٤ } : ٤٧)

لأن إدراك الإنسان لهذه المعاني هو الذى سوف يعطيه الفرصة الوحيدة — فى أثناء حياته الأرضية — لتى يحقق الغايات من خلقه . كما وإنه هو الخاسر الوحيد إذا لم يدرك هذه المعاني .. لأنه لن يحقق هذه الغايات .. التى خلق من أجلها !!!

وأخيرا أشير هنا ، وبعد أن قاربنا على الإتهاء من هذا الكتاب ، إلى أنه ؛ على الرغم من قبول هذا الكتاب " للمسلمة الأساسية " التى تقول بأن : " الديانة الإسلامية هى ديانة صحيحة " ، وما يتبع ذلك من أن يكون " القرآن المجيد هو وحى إلهي صادق وقادم من السماء " ، إلا أن قبول هذه المسلمة مازال يعتبر قبولا مطلقا ، على الرغم من كثرة الأمثلة التى سقناها هنا فى هذا الكتاب ، والتى تؤكد صحة نتائج هذه المسلمة ، وبالتالي صحة المسلمة نفسها . إلا أننا مازلنا نقول بأن القبول النهائي لهذه المسلمة قد أرجئ .. حتى الآن ..!! لأن — فى الواقع — يوجد للقصة بقية أو يوجد للقضية بقية ، وهذه البقية يفرضها علينا وجود العلم الإنسانى

الموجود على الساحة البشرية ، والذي لم نتعرض له في هذا الكتاب إلا من خلال شذرات عابرة لا تكفى بالإحاطة الكاملة بدور العلم والقيزياء في المساهمة الفعلية والإيجابية في إدراك صحة وصدق هذه المسلمة . لذلك كان لزاما علينا تقديم العلم البشرى كله في صورة جرعة مكثفة ، كما فعلنا مع الفلسفة البشرية سابقا ، وأوضحنا مدى قصورها ، وقصور دورها وعدم جدواها في تقديم أي عون حقيقي للإنسان نحو اكتشاف أي معرفة فعلية ، نحو الغايات الحقيقية من وجود الإنسان وخلقها ، وماهيتها ، ومصيره . كما وإن هذه الفلسفات لم تقدم أي فكر يذكر ، أو حتى أي شئ يعول عليه نحو المعرفة الحقبة بـ " الله " - سبحانه وتعالى - وصفاته .

وكما سنرى في الكتاب الآخر ١١٣ ، إن العلم - منفردا - لم ولن ، يقدم هو الآخر شيئا يمكن أن يعول عليه نحو معرفة الحقيقة المطلقة عن الله (ﷻ) وعن هذا الوجود . ففي الحقيقة ؛ إن الدين هو الذى يقدم للعلم ما ينبغي أن يفعله (الإنسان) من تجارب ، لكي يقود الإنسان إلى اليقين الكامل ، ونحو إدراك صحة الغايات من هذا الوجود . وبهذا المعنى يكون العلم هو التجربة الدالة ، أو هو البرهان اللازم على صدق وصحة المسلمة الدينية التى يقدمها الدين (الإسلامى) للإنسان .

أما العلم كفكر مستقل عن الدين هو لا شئ على الإطلاق ..!! كما وإنه لا يصلح لتقديم أى برهان أو حتى تقديم أى فكر يذكر عن وجود الإنسان ومصيره وكذا الغايات من خلقه . فالعلم بذاته قاصر عن أن يكون له الدور الإيجابى فى أن يقود الإنسان إلى حل لغز هذا الوجود ، أى وجود الإنسان ومصيره . فالعلم مستقل عن الدين هو بمثابة الجئة بلا حياة ..!! أو هو بمثابة التجربة المجردة التى ليس لها نتائج ، نظرا لغياب الهدف أو غياب المطلوب من هذه التجربة ، وذلك لغياب النظرية الحاكمه لها . فـ " العلم للعلم " يمثل الإنسان المتحرك فى هذه الحياة بلا غايات أو هدف . أو أن " العلم للعلم " يمثل الإنسان المتحرك فى هذه الحياة تلك الحركة العشوائية التى ليس لها اتجاه لا يدرى معها الإنسان .. إلى أين تقوده هذه الحركة وإلى أين ينتهى به المقام .. حتى وإن أثمر - العلم - عن تحقيق بعض الرفاهيات المادية القاصرة ..!!

إن المنهاج الإلهى ؛ هو الدليل الذى يقود الإنسان وعلمه نحو غايات محددة ، أى نحو الغايات الكلية من وجود هذا الوجود ، وطبيعة هذا المصير . فالإنسان والعلم بدون الله ، ليس لهم غايات عليا .. وبهذا يصبح .. الوجود للوجود .. أو تصبح .. الحياة للحياة .. لتتحول الحياة بهذا المعنى إلى ذلك الكابوس المخيف أو ذلك العبء الثقيل الذى يحمله الإنسان على

١١٣ * الدين والعلم ... وقصور الفكر البشرى * لنفس مؤلف هذا الكتاب . مكتبة وهبة / القاهرة .

كاهله وبنوء تحته ، والذي يجعل منه ذلك الإنسان الذي يتحرك في هذا الوجود بلا هدف أو غايات ، شأنه في ذلك شأن الحيوان والنبات والجماد .. حتى وإن كنا لا ندرك بحواسنا القاصرة أن الحيوان والنبات والجماد هم — في الواقع — الصورة التكميلية ، أو الخلفية اللازمة في بانوراما الوجود الإنساني ، حتى يتبين له حقيقة وجوده وواقعه .. ولتبقى هذه الصور .. خير شاهد على جهل الإنسان وقصور فكره .. وليس الغرور إلا سمة من سمات الحمقى والجهلاء ..!!

وسوف نرى أن العلم الإنساني كله يذوب ضعفا وهوانا وتواضعا وقلة ، كما يعكس حدود الضعف المتناهي لما هو عليه فكر الإنسان فعلا ، إذا ما قورن بما قدمه الله — سبحانه وتعالى — من علم لدنى للإنسان ، من خلال وحيه المطلق للرسول الكريم ، عليه الصلاة والسلام .

وتعجب .. وتعجب سويا ..!! لأن تعلم أن الله — سبحانه وتعالى — يطلب من الإنسان البرهان في كل شيء ، حتى في حالة الشرك به . أى حتى في حالة " قضية الشرك بالله " ، فمطلوب من الإنسان البرهنة على صحتها أيضا ؛ كما جاء في قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾
(١١٧)

(القرآن المجيد : المؤمنون {٢٣} : ١١٧)

فواضح من هذه الآية الكريمة أن جملة ﴿ ... — لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ — ... ﴾ هي ، في الواقع ، جملة اعتراضية ، في النص الإلهي . فكان يمكن أن ترفع هذه الجملة من الآية الكريمة ، وحينئذ يجرى النص على النحو التالي :

(ومن يدع مع الله إلها آخر " ... " فإتما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون)

وبهذا المعنى الأخير يتحدد عقاب الإنسان المشرك بالله على نحو مطلق . أى ليس هناك فارق بين من سعى إلى المعرفة الإلهية ولم يجدها ولهذا أشرك ، وبين من قبل الشرك كميراث عقائدى أحمق بدون تفكير . ولكن وجود مثل هذه الجملة الاعتراضية ﴿ ... — لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ — ... ﴾ ، لا تسوي بين الحالين ، بل تجعل من إمعان الفكر والبرهان اللازم لقضية الشرك بالله ، عوامل أساسية في الحساب النهائي — أو الأخرى — للإنسان .

وهكذا ؛ حتى فى " قضية الشرك بالله " - فى الفكر الإلهى - مطلوب البرهان لها أيضا .
فغير مقبول أن يشرك الإنسان - بالله - ببلاهة ، أو بدون إمعان للفكر ، أو بتغييب العقل ، أو
أن يشرك الإنسان كنتيجة - أو حجة - لميراث عقائدى أحمق بدون إعمال العقل فيه . وبديهى
إن السعى لإيجاد برهان للشرك بالله ، لن يؤدي بالإنسان المشرك إلا إلى الإيمان بالوحدانية
والتفرد .. أى الإيمان بوحدانية الله وتفرد بالخلق ..

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ
وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) ﴾
(القرآن المجيد : الأنعام {٦} : ١٤٨ - ١٤٩)

[والشرك : هو الإتجاه بالعبادة (بجميع صورها) إلى غير الله سبحانه وتعالى / تخرصون :
تكذبون]

فهل وعى الفلاسفة معانى تلك الآيات المحكمة ، أم إنهم مازالوا مغيبين . فهل وعى الفلاسفة
قوله تعالى : ﴿ ... قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ... ﴾ ، وهل وعوا قوله تعالى :
﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ... ١١٤ ﴾ ، والحجة البالغة هى البينة الواضحة والبرهان الدامغ
.. الذى لا يأتى بعده برهان آخر ..

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤) ﴾
(القرآن المجيد : النساء {٤} : ١٧٤)

وهذا هو الفرق بين الدين والفلسفة .. إنه الفرق بين الله .. والإنسان !!!

١١٤ سترجىء مناقشة ﴿ ... فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ إلى كتابات تالية إن شاء الله ، لارتباطها بقضايا
أخرى مثل الحرية والجبرية ، أو التصيير (أو التسيير) والتخيير ، والحكمة من الوجود . وذلك على
الرغم من المناقشة الجزئية التى تمت لبعض هذه المعانى فى هذا الكتاب ، إلا أن المعانى النهائية لا
تأتى إلا من خلال المناقشة الكلية لهذه القضايا ، وبالتوسع المطلوب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَالْتَّهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠) ﴾

(القرآن المجيد : التوبة {٩} : ١٠٩ - ١١٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[البنيان : قد يكون بالمعنى الحرفي له (كما هو الحال في المسجد الذي حرض فيه ابن عامر الراهب المنافقين لبنيته بالمدينة لتكون العصبية الجاهلية موضوعها التفاخر بالمساجد) ، كما يمكن أن يكون البنيان أى نظام فكري أو فلسفي أو اجتماعي يقول به الإنسان على نحو ما .. أو آخر / على شفا : على حرف أو حافة / جرف : من الآبار ما لم يبين له جوانب / هار : هائر من هار ، بمعنى قابل للإهيار / ريبة : شك / تقطع : تتمزق وتتفرق]

خاتمة الكتاب

لقد قضت الحكمة الإلهية ألا تتقارب الأديان الموجودة على الساحة البشرية من الناحية الفكرية ..!! بل أن الفوارق الفكرية بين جميعها وبين الدين الحق أضخم من أن تحسب . كما قضت الحكمة الإلهية أن تضع كل البراهين اللازمة ، والخاصة بالحكم على صحة الدين وإدراك وجود الله ، في حيز الشهادة كاملا وبلا غيبيات ..!! ولا يحول دون إدراك المرء لهذا ، إلا نظرتة القاصرة للدين حتى الآن ..!! وذلك كنتاج طبيعي للميراث الديني الذي خلفته الأديان الوثنية (اليهودية والمسيحية) والموجودة الآن على ساحة الفكر البشرى ..!! وهي الديانات التي تؤصل للخطيئة وتموج بالخرافات والأساطير غير الواعية ..!! وكذلك قضت الحكمة الإلهية أيضا بأن يختبر الإنسان فيما هو دون ذكائه القطري أو ملكاته الفكرية بكثير ، والتي ركبها الله – سبحانه وتعالى – فيه . وبعد أن فرغنا من قراءة هذا الكتاب ، يمكننا – الآن – أن نرى بوضوح الآتى :

أولا : أن " القضية الدينية " ليست " قضية غيبية " ، كما هو الاعتقاد الزائف فى هذا . بل هى ، فى الواقع ، " قضية يقينية " ^١ ، بكل ما تحوى الكلمات من معنى عريض لها ، وبالتالي يمكن التثبت منها ، ومن صدقها إلى أى درجة مطلوبة من الدقة .

ثانيا : أن " القضية الدينية " هى " قضية علمية كلية " يحتل فيها الوجود الإنسانى ، والوجود الفيزيائى ، والوجود الكونى جزئية صغيرة لا تكاد ترى . ولا يحول دون إدراك المرء لهذا ، إلا النظرة القاصرة إلى الدين والفكر الدينى ، كنتاج طبيعى للميراث الفكرى الذى خلفته الأديان الوثنية والموجودة الآن على الساحة الفكرية . كما لا يتجاوز معنى الفيزياء ، ومعنى الكون ، ومعنى الظواهر الطبيعية ، بل ومعنى الإنسان ذاته فى " القضية الدينية " ؛ إلا معنى التجارب المعملية المختلفة والمتباينة النتائج للدلالة على صحة " القضية الدينية " . وبهذا المنظور تكون " القضية الدينية " ؛ هى " النظرية العامة " التى تحدد للإنسان الغايات من

^١ انظر مقدمة الكتاب للفرق بين " القضية اليقينية " و " القضية العلمية " .

نوعية التجارب التي يجربها كتطبيق قابل للملاحظة والتحقيق . ثم تنتبأ له — أى تنتبأ القضية الدينية للإنسان — مقدما بنتائج هذه التجارب ، لتكون دليل صدق على المسلمات الأساسية التي تقدمها ، أو تقول بها " القضية الدينية " . وبهذا تصبح " القضية الدينية " هي " النظرية " ، كما يصبح العلم والوجود الإنساني هما " التطبيق " .

ثالثا : إن " الله هو مصدر الدين " ، وليس " الدين هو مصدر الله " . ففي الواقع ؛ تمثل القضية الأولى وحدانية " الله " ووحداية الدين ، بينما تمثل القضية الثانية " الشرك بالله " وتعدد الأديان . وبمفهوم " الله هو مصدر الدين " ، يكون " الله " — سبحانه وتعالى — قد أعفى الإنسان من الاجتهادات في تعريف الدين ، كما يكون قد أعفاه أيضا من الاجتهادات في تعريف ذاته (أى تعريف الذات الإلهية) ، وكذا تعريف الإنسان والغايات من خلقه . وبهذا المعنى يكون الله ، سبحانه وتعالى ، قد جنب الإنسان الوقوع فى الوثنيات الفكرية الخاصة بالتعدد والشرك ، طالما أن التأهيل الفطرى للإنسان لا يسمح له بتناول مثل هذه القضايا وبحثها معتمدا فيها على ذاته وملكاته الفكرية فقط .

ولقد رأينا — إلى الآن — أن الفكر السائد لدى البشرية هو أن " الدين هو مصدر الإله " . وبهذا الفكر تعددت الأديان ، حيث أصبح من حق كل دين أن يقوم بتعريف إلهه بالصورة التي يراها ويهواها كهنة العقيدة ..!! ولهذا يصعب — فى هذه الحالة — عقد المقارنات العلمية بين هذه الوثنيات الفكرية والدينية ..!!

رابعا : الرجوع بآسان نهاية الحضارات ليقف مرة أخرى — كآسان بداية الحضارات — تماما ؛ خاشعا متضائلا بجوار الظاهرة الطبيعية سواء بسواء .. أمام الوجود " الإلهي " المتعالى . ولقد رأينا أن الظاهرة الطبيعية قد وقفت — لوقت طويل — حائلا بين إنسان منتصف الحضارات ، وبين " الله " سبحانه وتعالى . ولهذا قد حالت الظاهرة الطبيعية طويلا دون إدراك الإنسان لله . ولكن بعد أن تخطى إنسان نهاية الحضارات معنى الظاهرة الطبيعية ، وجد نفسه يقف إلى جوارها جنباً إلى جنب — كجزء مكمل لوجوده — أمام هذا الوجود الإلهي المتعالى .. لكي تتصافر المتناهيات (أى تصبح أصفارا) أمام هذا الوجود الإلهي المتعالى واللامتناهى . فلا فرق بين إنسان نهاية الحضارات وبين إنسان بداية الحضارات أمام الله ، إلا أن الأخير أصبح أكثر رؤية لله — سبحانه وتعالى — عن ذى قبل . وتزيد هذه الرؤية وضوحا كلما ازداد علم الإنسان . ويصل الإنسان برويته إلى حد الإدراك الكامل بوجود " الله " ، أو إلى اليقين الكامل ، وذلك عند المتناهى العلمى والحضارى والزمنى لوجود الإنسان على سطح هذا الكوكب الضئيل ؛ كوكب الأرض .

خامسا : لقد كان من الضروري إعادة صياغة الدين بالطريقة التي تضمن عدم تسرب الأديان الوضعية من خلال هذا التعريف ، كما تم وضع الشروط المصاحبة والضرورية للحكم على صحة الدين وأن مصدره هو " الله " (ﷻ) ، وليس مصدره الإنسان . وبهذا يمكن الحكم الآن على صحة الأديان الموجودة على ساحة الفكر البشرى ومدى مصداقيتها.

سادسا : كما تم بيان أن "القضية الدينية" (قضية الحكم على صحة المضامين الدينية) و "القضية الإلهية" (قضية إثبات وجود الله) هما - في الواقع - قضيتان مستقلتان تماما كل منهما عن الأخرى ، ولكل منهما طبيعتها الخاصة وبراهينها المميزة . فبينما تكون " القضية الإلهية " قضية فطرية في المقام الأول ، نجد أن " القضية الدينية " هي " قضية علمية كلية " أي قضية عقلية .. في المقام الأول والأخير ، وليس هذا فحسب بل تستلزم القضية الدينية ، براهين أشد صرامة من البراهين اللازمة للبرهنة على صدق " النظريات الفيزيائية الحديثة " .

سابعا : ثم رأينا أن الفكر الفلسفي منذ بدء الحضارة البشرية وحتى الفلسفات المعاصرة لم يقد الإنسان إلى فكر يذكر عن تعريف الإنسان ، أو الوجود ، أو تعريف الكمالات الإلهية . فالفكر البشرى قاصر - بذاته - قصورا كاملا عن تناول مثل هذه المواضيع ، والوصول فيها برأي يمكن أن يعول عليه .. أو القطع بصحته .

ثامنا : ونشير هنا إلى أننا قد افترضنا في بداية هذا الكتاب المسلمة الأساسية التي تقول بأن "الديانة الإسلامية هي ديانة صحيحة" ، وقلنا بأنه ليس ثمة قيمة فيما يفرض من مسلمات ، ولكن القيمة فيما تؤدي إليه هذه المسلمات من نتائج قابلة للقياس والتحقيق . كما قلنا بأن البرهان على صحة المسلمات ، مرتبط أساسا بصحة النتائج المترتبة عليها ، أو المنبثقة منها . وكما رأينا ، فإنه قد ثبت ثبوتا مطلقا صحة كل النتائج المترتبة على هذه المسلمة الأساسية المذكورة ، من خلال ما ناقشناه هنا في هذا الكتاب من أمثلة كثيرة مختلفة ومتباينة ، مما يقودنا هذا حتما إلى القول بأن هذه المسلمة هي مسلمة حقيقية فعلا ؛ أي أن الديانة الإسلامية هي ديانة صحيحة فعلا . ومع ذلك فقد فضلنا ألا ننتهي إلى هذه النتيجة في نهاية هذا الكتاب ، لأن ملازال للقصة بقية أو مازال للقضية بقية . وهذه البقية يفرضها علينا وجود العلم الإنساني الموجود على الساحة البشرية ، ولم نتعرض له في هذا الكتاب إلا من خلال بعض الأمثلة العابرة ، والتي لا تكفي للإحاطة الكاملة بدور العلم والفيزياء الكامل في المساهمة الفعلية والإيجابية في إدراك صحة وصدق هذه المسلمة .

لهذا فقد تم أرجاء الحكم النهائي على صحة هذه المسلمة لحين الانتهاء من تقديم العلم البشرى كله فى صورة جرعة مكثفة ، كما فعلنا هنا مع الفلسفة البشرية كلها ، التى تم تقديمها فى هذا الكتاب فى الفصل الرابع . وقد أوضحنا مدى قصور الفلسفة ، وقصور دورها وعدم جدواها فى تقديم أى فكر إيجابى عن معرفة الغاية الحقيقية من وجود الإنسان وماهية ومصيره . كما وإنها — أى الفلسفة — لم تقدم أيضا ، أى فكر يذكر حول المعرفة الحقيقية بـ " الله " ، سبحانه وتعالى ، وماهية كمالاته .

وفى الكتاب التالى إن شاء الله ^٢ ، سوف نرى إن العلم — بذاته — هو الآخر قاصر عن تقديم أى شىء يذكر ، عن " الإنسان " أو عن " الله " . فالعلم يمكن أن يودى إلى التجربة الدالة على صحة المسلمة الدينية ، إذا ما أحسن توجيهه فقط . أما العلم بذاته — أى بدون توجيهه — فهو قاصر عن أن يكون له أى دور إيجابى فى أن يقود الإنسان — بمفرده — إلى حل لغز الوجود والمصير . فالعلم مستقل عن الدين هو بمثابة الجثة بلا حياة ..!! أو هو بمثابة التجربة المجردة التى ليس لها نتائج لغياب الهدف المطلوب منه ، نظرا لغياب النظرية الأساسية أو الحاكمه له ألا وهو الدين .

فالمناهج الإلهى ؛ هو الدليل الذى يقود الإنسان وعلمه نحو الغايات الكلية من الوجود والمصير . وبدون هذا المنهاج يصبح الوجود غير موجه نحو غايات عليا ، بل يصبح " الوجود للوجود فقط " .. أى وجودا عشوائيا ..!! وبهذا تتحول الحياة إلى " الحياة للحياة " أى إلى خواء مطلق ، وعبء يتقل كاهل الإنسان ، لينتهى به الحال إلى العدم ..!! وبديهى — كما انتهينا هنا — إن هذا ليس هو الواقع الحق ..!! وسوف نرى ، إن العلم الإنسانى كله إنما يعكس حدود الضعف المتناهى لما هو عليه الفكر الإنسانى فعلا ..!! إذا ما قورن بما قدمه الله — سبحانه وتعالى — من علم لدنى للإنسان من خلال وحيه المطلق كما جاء فى القرآن المجيد .

تأسعا : تم بيان أن " الإدراك الفطرى بوجود الله " ، و " فطرية التدين " لدى الإنسان ، وعملية " غسل المخ " الجماعية التى يجربها كهنة العقيدة على الأتباع أو الشعب ، هذا إلى جانب عدم فهم معنى الدين (البلاغ) ومعنى دور الدين فى حياة الإنسان (التشريع المطلق) ، هى القضايا الثلاث الرئيسية والمسئولة والمسئولة المباشرة عن تعدد الأديان بشكلها الراهن حاليا . كما تم البرهان ، بما لا يدع مجالاً لأى شك ، على وثنية وخرافة الديانتين اليهودية والمسيحية وذلك برؤية علمية شاملة وحقيقة مجردة بدون أى فلسفات ، أو تجاوزات فى المعنى

^٢ " الدين والعلم ... وقصور الفكر البشرى " لنفس مؤلف هذا الكتاب . مكتبة وهبة / القاهرة .

المراد ، وذلك من منظور البند السابق . فهي ديانات توصل للخطيئة وتدعوا المتلقي للعمل بها ، كما تموج بالخرافات والأساطير غير الواعية على طول منهاجها !!..

عاشرا : ونهى هذه الخاتمة بتكرار القول ، بأن هذا الكتاب ليس فكرا تبشيريا ، بدين ما ، بقدر ما هو تبشير بالوجود الحقيقي للإنسان ، وإن هذا الوجود هو غاية ومحور . وأن الإنسان محاسب أولا ، فيما هو محاسب عليه ، على صحة التوجه إلى الله ، وبلا فلسفات . فيجب أن يعي الإنسان أن " القضية الدينية " ليست " قضية إنسانية " بل هي " قضية إلهية " وبالتالي :

فهي ليست " قضية صراع بين حضارات مختلفة " أو " قضية صراع بين أيديولوجيات مختلفة " ، كما وأنها ليست " قضية تبشيرية " في أديان تتخبط في تحديد هوية أصنامها . وهي أيضا ليست " قضية سياسية " لكسب " أتباع ما أو أرض ما " . ولكنها — في الواقع — هي " قضية وجود الإنسان ذاته ومصيره هو " . ذلك الإنسان الذي سرعان ما سيدب فيه الفناء وتدركه الشيخوخه ، هذا إن لم يدركه الموت قبل هذا ، ليغادر هذه الحياة إلى اليقين الكامل !!.. ليقف وجها لوجه أمام الحقيقة المطلقة ، حيث يكون هو الخاسر الوحيد لنفسه في هذا الوجود ، إذا لم ينتبه إلى المعنى الحقيقي للقضية الدينية ، لأنه بهذا المعنى سوف تفوته الفرص الحقيقية أو الفرصة الوحيدة لتحقيق الغايات من خلقه ، لأنه لم يدرك القصد الإلهي من هذا الخلق ، كما وأنه لم يدرك المعنى الحقيقي من وراء وجوده ، ومن وراء وجود هذا الوجود .

ولا يبقى غير التذكير بأن رحلة حياة الإنسان عبارة عن طريق واضح المعالم يملؤه النور . بدايته نور ، وأوسطه نور ، ونهايته نور ، وطريقه لا يحوى حتى الظلال . ولا لبس ولا غموض ولا يوجد أى توضيحات عقلية فيه .. والحقيقة المطلقة في انتظاره .. عند أول منعطف من هذا الطريق .. طريق حياته هذا .. وهو ملاقيها .. شاء هذا أم أبى !!..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ..
(١٤٣) ﴾

(القرآن المجيد : البقرة {٢} : ١٤٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المؤلف .. حدائق القبة / ١٥ نوفمبر ٢٠٠٩ ..